

دار العلم للملايين



شجرة الدرّ

أوّل ملكة في الإسلام

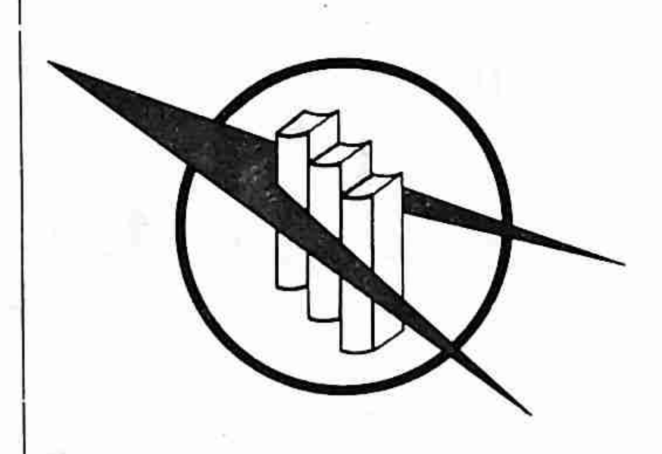
دار العلم للملايين
بيروت

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٢

الطبعة الثامنة عشرة

شباط (فبراير) ١٩٨٦

١

رحلة مفاجئة ..!

كان الملك الكامل ، أحدُ خلفاء صلاح الدين الأيّوبي الكبير قاهرِ الصليبيّين ، يبسط سلطانه على وادي النيل ، وبلاد الشام ، والحجاز ، واليمن ، فولّى كبير أبنائه الأميرَ نجمَ الدين أيوب على حصن « كيفا » الواقع على حدود تركستان .

ولم يكن بلاط الأمير الشاب ، في ذلك الحصن البعيد ، لِيقلَّ عظمةً عن بلاطات الملوك والسلاطين في ذلك الزمان. فكَثُرَ فيه رجال الحرس، والخدم، والوصيفاتُ الروميّات والتركيّات والجَرْكسيّات .

وكانت بين أولئك الوصيفات فتاة في عمر الورود ،

بارعةُ الجمال ، حسنة الصوت ، رفيعة الثقافة ، تحسن الكتابة والقراءة ، وتجيد إنشاد الشِّعر . فاسترعت انتباه نجم الدين ، ونالت لديه حُظوةً خاصة لم تَنَلْ مثلَها فتاةٌ أخرى من وصيفات البلاط .

ولمس الأمير فيها من الرصانة ، والإخلاص ، وسلامة الذوق ، ما زاده تعلُّقاً بها ، وإكباراً لمواهبها ، فقال لها يوماً :

ـ كنت أحسِبُكِ دُرَّةً ثمينة ، فاذا أنت « شجرة الدّر » .

فانحنت أمامه شاكرة ، وقد احمرّ وجهها خجلاً .
ولزِمها هذا الاسم ، فعُرفت به طوال أيام حياتها .

وما لبث نجمُ الدين أن اقترن بها ، وجعلها سيِّدة قصره ، فكانت له زوجةً أمينة ، ومساعدة وفيّة ، تسهرُ على راحته ، وتخفّف عنه عِبءَ الحكم ومتاعبه ، بما فُطرت عليه من الأُنس ، ورقّة الطبع ، ودماثة الأخلاق . حتى أصبح يبوح لها بأسراره ، ويحترم رأيها ، ويستشيرها في كل كبيرةٍ وصغيرة .

وفيما كان الأمير مطمئناً إلى غدِه ، ينظر إلى مستقبله متفائلاً ، ويتوقع أن يَخْلُفَ أباه على العرش - وهو الوريث الشرعيّ له - تلقّى من القاهرة أنباءً نَغَّصتْ عيشه ، وأقَضَّت مَضْجَعَه ، مفادها أن الملك نصّب صغير أبنائه ، أبا بكرٍ ، ولياً للعهد .

استاء نجم الدين مما أقدم عليه أبوه ، وكاد يتمزّق غيظاً ، وبخاصة أن أبا بكرٍ هذا ، لم يكن أخاً شقيقاً له . كما أنه ما يزال صبياً طائشاً لا يقدّر ولاية العهد حَق قدرِها ، ولا يستطيع القيام بأعبائها في زمنٍ تعصِفُ فيه الأخطار بالدولة الأيوبية من كل جانب، وفي مقدمتها خطرٍ الغُزاة الصليبيّين . وكان هؤلاء قد حشدوا قواهم لشن حملةٍ سابعة على بلادنا ، ومصر على الخصوص . كذلك كان هنالك خطر المغول والتتر الذي هبّت رياحه من الشرق والشمال .

وتبادر إلى ذهن الأمير أن أباه ، الملك الكاملَ ، لم يرسله إلى حصن كيفا البعيد إلا ليقصِيَه عن العرش .



شجرة الدر تنصرف من حضرة الأمير

فقرر أن يستعيد حقّه بالقوة إذا عجز عن استعادته بالسياسة واللّين .

- وكانت شجرةُ الدرّ قد أنجبت منه صبياً سمّاه «خليل» فأطلعها زوجُها على ما في نفسه ، فقالت له ، والحماسة تلمع في عينيها :

ـ أنت ، يا مولاي ، صاحب الحق . ومن واجبك أن تدافع عن حقك بكل ما أُوتيت من قوة . إحزِمْ أمرك ، وسِرْ إلى مصر على بركات الله !

ـ وأنتِ ؟

ـ أسيرُ في رِكابك ، أخدمك بعينيّ ، وأفديك بحياتي .

ـ لا تَنْسَيْ أنك مسؤولةٌ عن طفلنا ، وهو ما يزال رضيعاً !

ـ نحملُه معنا ، ونساويه بنفسَينا .

وكانت تتكلم بقوة هادئة ، وفي صوتها نَبَراتُ الثّقة والإيمان بالفوز ، فانشرح صدر الأمير ، وأشرق وجهه بعد تجهّمٍ وعبوس ، ثم قال لها ملاطفاً :

ـ أنتِ ، يا شجرة الدرّ ، أختُ الرجال ، فواللهِ إنّ كلماتِكِ تبعث في نفسي قوةً ما كنتُ أشعر بمثلها من قبل .

ـ لا فضلَ لي في ما أقول وأعمل يا مولاي ، فأنا زوجةٌ مخلصة تقوم بواجبها نحو زوجها ، وهو سيّدُها ، وحاميها ، وعنوان عزّتها وشرفها .

ـ ما أَصدقكِ ! ولكن ، هل فكّرتِ بخطة لمواجهة الصعاب الطارئة علينا ؟

ـ الأمرُ لك ، يا مولاي ، وعليّ الطاعة . لكنّني أرى أن نغادر هذا الحصن بسرعة ، ثم نسير إلى مصر . فهناك فقط ، لا في مكان آخر ، يتاح لنا العمل الجدي .

ـ ما الخطة الفضلى كما ترَين ؟

ـ أن تواجه الأمرَ الواقع غير هيّاب ، فَتَجْهَرَ بحقك مطالباً السلطان باحترامه . وبعد ذلك تبدي استعدادك للدّفاع عن هذا الحق ولو بلغ الأمر اللجوءَ إلى السلاح .

وكان هذا الرأي يعبِّر أصدقَ تعبير عما يجول في خاطر نجم الدين . فامتلأت نفسه سروراً ، وأحسّ بالأمل يتجدّد في قلبه ، فخاطب شجرة الدُّرّ قائلاً :

ـ نِعْمَ الرأيُ رأيك . وسنغادر حصن كيفا قريباً ، بإذن الله .

وفيما كان الأمير يُعدّ عدته للسفر ، علم بوفاة أبيه الملكِ الكامل ، ووَرَدَت عليه الأنباء بأن أخاه أبا بكر قد جلس على العرش باسم « الملك العادل » . فأدرك أن الإسراع بالسفر الى القاهرة أصبح ضرورياً قبل فوات الأوان . وما هي إلا أيام حتى خرج من الحصن تصْحَبُهُ شجرة الدر ، وابنها الخليل ، وبضع عشرات من الرجال على رأسهم أبطالٌ كانوا مخلصين له كل الاخلاص. وفي مقدّمة هؤلاء كان عِزّ الدين أيْبَك ، وركُن الدين بَيْبَرْس البُنْدُقْدارِي ، وقلاوُون ، وأقطاي .

وسارت القافلة الصغيرة متّكلةً على الله. فكانت شجرةُ الدر مِثالَ الجندي النظامي ، والأم الحنون ، والزوجة الوفيّة . كانت تتحمل المشقاتِ بلا تذمّر ، ولا

يلتقيها الأمير إلا ويراها مشرقة الوجه ، واثقةً بالنصر ، لا يعرفُ الخوفُ إلى نفسها سبيلاً .

وازداد نجم الدين إعجاباً بها لمّا تبيّن َله أنها فرضت احترامها على جميع الذين عرفوها ، إذِ استطاعت ان تحجب محاسن أُنوثتها وراء ما تحلّت بــه من الهَيْبَة والوقار ، وما تجلّى فيها من اكتمال العقل، و نُضج التفكير وقوة الإرادة . فلم يعد أحدٌ من رجال القافلة يشعر ان « أُم خليل » امرأةٌ كَسِواها من النساء ، بل أدركوا جميعاً انهـا « سيّدة » بكل معنى الكلمة . فما مرّ يوم إلا وأعطت فيه برهاناً جديداً على عقلها وبُعد نظرها ،ودرايتها بمعالجة الامور .كذلك ما أبدته من الشجاعة في مواقف ترمي الرعبَ في قلوب الرجال .

فذات ليلة هاجمت الذئابُ مضارب القافلة في جبال زغروس ، وكان البرد قارساً ، والقمر بدراً . وفيما كان الرجال يصدّون الوحوش الجائعة بالرماح والعصيّ ،وقفت « أم خليل » على باب خيمتها كأنهــا اللبؤة المتحفّزة للوثوب . لقد َضمّت طفلها إلى صدرها بيُسراهـا ،

وحملت بيمناها سيفاً ، تأهّباً منها للاشتراك في المعركة اذا دعت الحاجة .

ولما زال الخطر ، قال لها نجمُ الدين مازحاً :

ـ أرى أنكِ تُجيدين حمل السيف !

فأجابت :

ـ إني مستعدة للقتال في سبيلك حتى الموت.

ـ هذا جميل .. غير ان معركتنا هذه مع الذئاب ، وكان النصر فيها مضموناً لنا، أما معاركنا المقبلة فستكون أقسى قتالاً وأشدّ خطراً ..

ـ ماذا تود ان تقول ؟

ـ هل أنتِ مصمّمة على خوضها معنا ؟

وصمتتْ طويلاً..ثم قالت بصوت عميق الغَور ، نابض بالصدق :

ـ أنا أحيا لأخدمك ، يا مولاي ، أو أموت دفاعاً عن قضيّتك العادلة .

وخشي ان تغلب عليه العاطفةُ فيُظهر أمامها ضعفه، فقام الى وحيده يداعبه ، ويتأمل وجههَ الصغير ، يرى

فيه نضارة الطفولة ، وعينيه الصافيتين الناطقتين بكـل معاني البراءة والنقاء .

وفي هنيهة من الاسترسال مع ما يجول في الخاطر، جعل الوالد يناجي الطفل قائلاً :

ـ إيه يا خليل، سلَبوك عرشَك ! ولكني أقسِم بأن أعيده إليك. نَمْ هانئاً ، يا وحيدي، فأبوك ساهر ، والحقّ معك ، ويدُ الله فوق الجميع .

٢

من الأسر الى العرش

تابعت قافلةُ نجم الدين سيرها جنوباً بغَرب ، ولم تعترض سبيلها قوةٌ معادية ، ولم تلقَ ما يثير الرِّيب والقلق . فقد كان السكان يستقبلون الأمير وصَحْبه مرحِّبين بهم ، ويقدّمون لهم ما يحتاجونه من المساعدات والمؤن .

غير أن هذه الاحوال تبدّلَت تماماً حين اقتربت القافلة من حدود فلسطين . هناك جاء من يقول لِنَجْم الدين : « إن ابن عمك الملك الناصر داود ، أميرَ الكرك والشّوبك وجوارهما من أرض الأردن ، ناقمٌ عليك . إنه يعتبر ذهابك الى مصر تحدّياً له ، وتطاولاً على حقّه . إنه

لَطامعٌ بعرش أبيكَ الملك الكامل ، ولا يقرُّ بشرعية تنصيب الملك العادلِ في القاهرة».

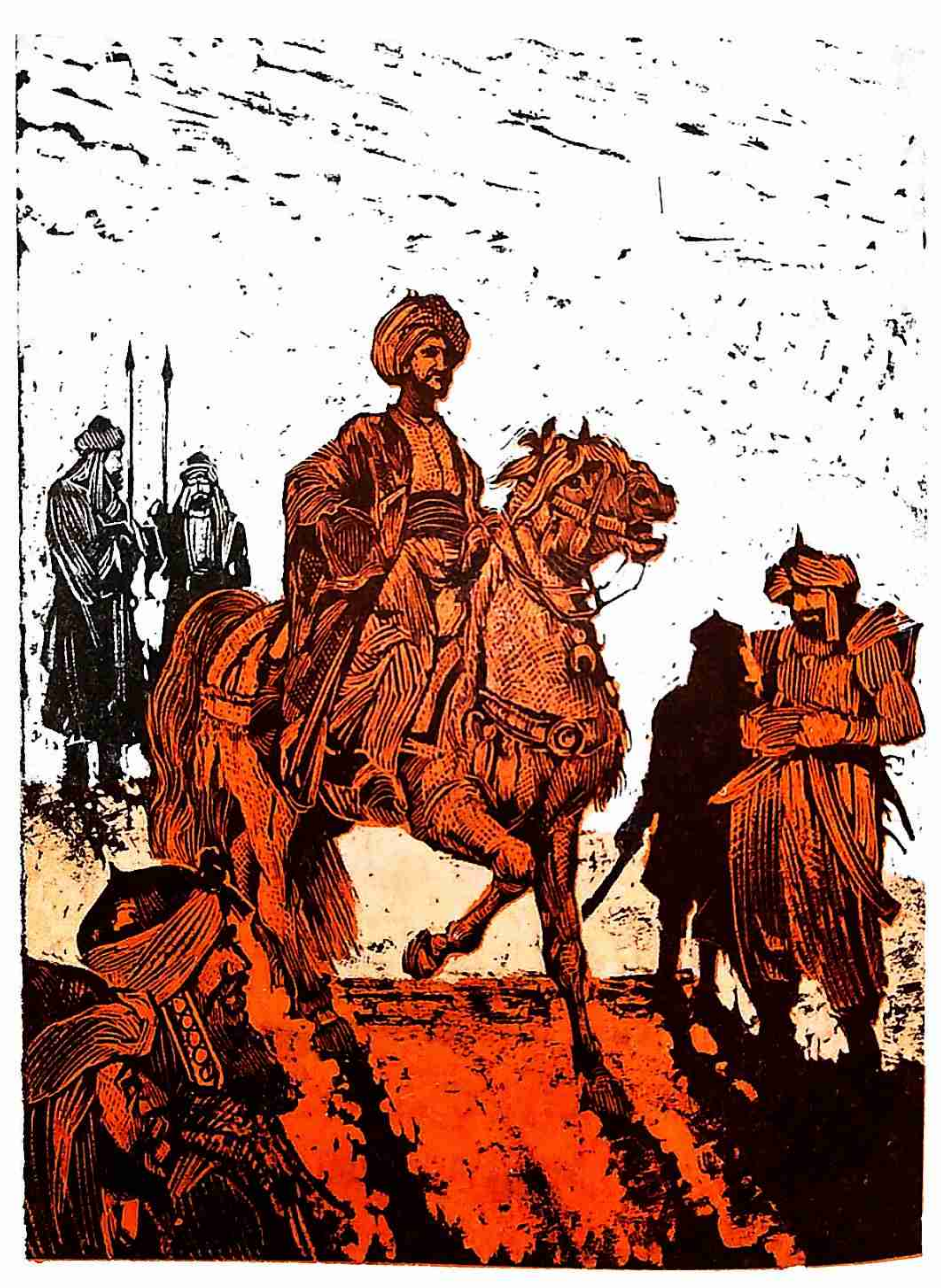
وعقد الأمير اجتماعاً طارئاً مع أَيبَـك ، وبيبرس ، وقلاوون ، وأقطاي ، فتداولوا في هـذا الأمر الخطير . وكانت شجرة الدرّ تسمع أقوالهم من وراء الستار بعلم زوجها وموافقته. فاتّفقوا على أن يُتابعوا سيرهم إلى مصر مهما تَكُن النتائج ، وأن يواجهوا الحوادث والمفاجآت بما لديهم من الإمكانات .

ولمّا بلغت القافلة أطراف مدينة نابُلُسَ من فلسطين، طوّقها جيشُ الملكِ الناصر داود . وقرأ نجمُ الدين في عيون فرسان ابن عمه أماراتِ الشر ، فخاطبهم قائلاً :

ـ أيها الرجال ، ما جئناكم محاربين ، فمـن هو قائدكم ؟

فبرز فارس ملثّم ، تغمره درع واسعـة ، عظيم الرأس ، وقال :

ـ أنا عمران اليماني ، قائد هذه المفرزة من جيش مولانا الملك الناصر .



عمران يأسر الأمير نجم الدين

ـ تسرّني لُقياك . فأرسلْ من يقول للملك أن ابن عمه نجم الدين أيُّوب يطلب الترخيص له باجتياز أرض فلسطين .

وكان جواب عمران :

ـ إن مولانا الملك يعرف عنكم كل شيء ، وقد أَمرَنا بقتالكم إذا أردتم القتال ، وباحتجازكم في قلعة الكرك إذا استسلمتم .

فتبادل الأمير نظراتٍ سريعةً مع رجاله الأربعة ، وتفاهم معهم من غير كلام ، ثم قال لعمران :

ـ قلتُ لك إننا لم نأتِ محاربين ، فسِرْ بنا إلى قلعة الكرك ، وأمرُنا لله .

* * *

كان ذلك سنة ٦٣٧ هجرية . وقد بادر الملكُ الناصر فوراً إلى مراسلة الملك العادِل في القاهرة . كتب إليه أنه أَسرَ نجم الدين وحاشيته ، وعهِد إلى رسوله بالمساومة على

تسليم الأسرى مقابلَ مكافاةٍ تُرضي طموحَـه وتوسّع رقعة حكمه في ديار الشام .

في تلك الأثناء كان نجم الدين وصحبُه منقطعين عن العالم ، لا يدرون ما يجري حولهم من أحداث .

أما شجرةُ الدرّ فادركت بالفِطْنةِ ما يفكّر فيه الملكُ الناصر ، فقالت يوماً لزوجها :

ـ لقد طـال أسرُنا ، يا مولاي ، ولم يأتِنا من الملك الناصر ما يُفيدنا عن غايته من احتجازنا ، ألا ترى لهذا السكوت سبباً ؟

فتضايق نجم الدين من هذا التساؤل وقال :

ـ لعـّله ينتظر أن نعرض عليه فدية .

ـ أَجلْ ، يا مولاي ، هذا ما ينتظره ابن عمك . فإنْ لم تبادر إلى الاتفاق معه سبقك الملكُ العـادل وانتهى أمـرنا .

ـ لكن ، كيف أبدأه من طرَفي !؟ ليتَـه يصارحنا بما يريد !

ـ لسنا بحاجة إلى مصارحته . ما علينا إلا أن نَعِدَه بأكثرَ مما يطلب من أخيك الجالس على عرش القاهرة .

وأيقن نجم الدين أن شجرة الدرّ على صواب ، فراح يلاطف رجال الحرس ، ويجود لهم بالمال بـــلا حساب . فاستأنسوا به ، وأخبره أحدُهـم أن الملك الناصر طلب من الملك العـــادل عرش الشام ثمناً لأسراه . فأجابه نجم الدين :

ـ قل لابن عمّـنا العزيز إن أخانا الملكَ العـــادل فتىً قاصر ، وأعجزُ من أن يَهَبَ العروش . فـــإذا أراد أن يُحالفنا ضَمِنّـا له عرش الشام ونصف الخَـراج ...

ونقلَ الحارس إلى سيّده هذا العرض السخيّ . وفي اليوم التالي جاء الناصرُ إلى قلعة الكرك ، لامعَ العينين ، وصافح ابنَ عمه نجم الدين بحرارة ، وسأله عن أحواله وأحوال حاشيته .. ثم سكت . فأدرك نجمُ الدين أنه يريده أن يكون البادىء في الكلام ، فقال :

ـ يا ابنَ العم ، أدهشَنا والله هجومُ جيشك علينـا ،

واعتقالُنا في هذه القلعة، حتى تصوّر لنا أننا في غير بلادك.

فأجاب الملك الناصر متظاهراً بالأسف والندم :

ـ الواقع أننا قد أخطأنا في ذلك ، فجئنا نلتمسُ منك المعذِرة ، والكريمُ مَن قبِل الاعتذار .

فمدّ الأمير يده ، ووضعها على كتف الملك قائلاً :

ـ أنت منّا ، أيها الملك ، ونحن لك . إننا نضمن لك عرش الشام ونصف الخراج إذا أُتيح لنا أن نستعيد حقنا في القاهرة .

فتهلّل وجهُ الناصر حبوراً ، وإذا به يبسط يمينه ويقول :

ـ اتّفقنا . فأنتم ، يا ابن العم أحرار ، ترحلون ساعة تشاؤون ، وتحرسكم قوّةٌ من جيشنا حتى تنزلوا في وادي النيل سالمين .

وفي ذلك المساء راح الأمير يجلس إلى شجرة الدرّ ويقول لها :

ـ لقد نجحت خِطتُك ، يا أم خليل ! هـا نحن

أحرار ، أقوياء بحقّنا . ومتى بلغنا مصر ، جمعنا فيها رجالنا الأوفياء ، وأعدْنا الحق إلى نصابه بحدّ السيف .

كان وجهه يطفح سروراً ، وقد أيقن بالنصر المبين . فقالت شجرة الدرّ :

ـ لكلّ داءٍ دواءٌ ، يا مولاي ، ولكل صعب علاج . لم أشكّ لحظةً واحدةَ في أنك بالغٌ أرَبَك ، بإذن الله . فأنت الملك الكامل ، ولا يموتُ حقٌ وراءه مُطالب .

ـ إن لكِ فضلاً في ذلك، فأنتِ صاحبة الرأي الصائب في هذا الأمر ، وهذا ما لن أنساه .

ـ حَسْبي رضاك عنّي يا مولاي ، فانتصارُك حياةٌ لي ، وكلُّ نَكْسَةٍ تحِلُّ بك تغرس في قلبي سهماً قاتلاً .

وبعد أيام قليلة استأنفت قافلة نجم الدين سيرها إلى مصر . وفي أثناء الطريق ، قالت شجرة الدر للأمير :

ـ إن طريقنا طويلة، وقافلتنا بطيئة . . فليت مولاي

الأمير يرسل رجاله أمامنا ، لعلّهم يُعدّون الرجال ، ويهيّئون الأمر قبل وصولنا .

أعجب نجمُ الدين بهذه الفكرة ، وتداول فيها مع رجاله ، فوافقوا على تنفيذها. وفي فجر اليوم التالي انطلق أيبَك ، وبيبرس ، وقلاوون صوبَ مصر على رأس ثلاثين رجلاً ، ولم يبقَ مع الأمير غيرُ أقطاي ونفرٌ قليل من الجنود .

وفي مصر قام الرجالُ الثلاثة بمهمّتهم خير قيام ، إذ ساعدتهم الأحوال على جمع الرجـــال ، وحشْدِ القوات الكبيرة . فقد كان وادي النيل مهدّداً بالخطر الصليبيّ الزاحف من الغَرْب ، وأدرك أهـــلُ مصرِ بدافعٍ من الحبّ لبلادهـــم ان الملك العادل أعجزُ من أن يصمد في وجه الغزو الأجنبيّ ، وأن البلاد بحاجة إلى رجالٍ أشدّاءَ مجرّبين ، يخوضون المعارك ببسالةٍ ، ويَجْبَهون الموتَ بلا وَجَل . إن مصرَ أغلى عندهم من أيّ مَلِك .. وقَهْرُ الصليبيّين مهمّة نبيلة ..

وما كاد بيبرس ، وأيبك ، وقلاوون يذكرون اسم

نجم الدين أيوب حتى انتعشت النفـــوس ، وتجدّدت العزائم ، وعَمَرت الصدورُ بالأمل . ها هو من يتصدّى للغُزاة قد حضر .

وفيما كان الملك العادل لاهياً في بلاطه ، شأنَ كثير من الملوك الذين يحتقرهم الشعبُ عن حقّ ، كان المقاتِلون يجمعون صفوفهم ، ويشحذون أسلحتهم . ولم يكونوا يفعلون ذلك لخلع ملك ضعيف وتنصيب ملك قويّ ، - فكلُّ ملكٍ أهونُ شأناً من ذلك - بل لضرب الغُزاة الصليبيّين ضربةً قاضية تُرغمهم على العودة إلى بلادهم خائبين . وقتذاك ، لن يفكروا بإعادة عُدوانهم على بلاد العرب وحرمة الإسلام .

وما كاد نجم الدين يصل القاهرة حتى ارتفع الهتاف باسمه من عشرات ألوف الصدور ، وكان رجاله الثلاثة الذين سبقوه قد نظّموا الصفوف وتأهّبُوا للمعركة ، إلا أنهم لم يحتاجوا إلى القِتال ، فقد ألقى رجالُ الملك العادلِ سلاحهم بعد مناوشةٍ شكليّة . فقبض نجم الدين على زمام

الأمور بيدٍ من حديد ، واحتجز أخاه أبا بكر في قلعة الجَبَل التي بناها صلاح الدين على جبل المُقطَّم ، وأعلن نفسه سلطاناً باسم « الملك الصالح » ، ثم أخذ يستعدُّ لقتال الغُزاة الصليبيِّين .



٣

حكمة «أم خليل»

ابتهجت شجرةُ الدرّ بانتصار زوجها ، وقاسمتْه أمجاد الحكم والسلطان . وعلى الرّغم من حرصها الشديد على التحجّب والتواري وراء الستار ، فقد ارتفع الهتاف باسمها من ملايين الصدور . وكان الملك الصالح فخوراً بها ، كثيراً ما يحدّثُ قادة جيوشه ورجال حاشيته عن إخلاصها ، وسداد رأيها ، وشجاعتها النادرة في أوقات الشدّة . وكان يومَ جلوسه على العرش قدبلغ الرابعة و الثلاثين من العمر .

فلمّا علم الملكُ الناصر في الكرك بانتصار نجم الدين الساحق ، والتفاف الشعب المصريّ حوله ، ندم على

ما فعل ، واعتبر إمارته الصغيرة غير لائقة به . فجعل يُظهر استياءه بأساليب غير مستحبّة ، كان يقطع الطريق ، ويفرض الرسوم الباهظة على القوافل الذاهبة الى مصر والآتية منها . لذا كان من الضروري ان يعمد نجمُ الدين الى تاديبه ، فلم يمنحه عرش الشام ولا عرش غيرها .. ولا حتى صداقته .

وكانت شجرةُ الدر عيناً ساهرة لا تغفل عن شيء ، وعزماً دائم التاهّب يُعدّ لكل أمرٍ عدته . كما كانت ذات نظر بعيد ، فهي تحسب لغدرات الدهر ألف حساب . لذا أشارت على زوجها ببناء قلعة في جزيرة الروضة في القاهرة ، ليجمع فيها المماليك ، ويجعلهم جيشه الخاص .

ولما تمّ بناءُ القلعة ، واكتمل جيش المماليك الذين يدينون له بالولاء ، أحسّ بما هو عليه من المناعة والقوة ، وفهم ما أرادته شجرة الدر . فازداد حباً لها وإعجاباً بمواهبها ، وبنى لها قصرا في الروضة تمتّعت فيه بكلّ ما كانت تحلم به من الرّغَد ، والطمأنينة ، والعِزّ .

في تلك الأثناء أخذ خطر الغزاة الصليبيين يشتد يوماً بعد يوم. فانصرف الملك الصالح إلى تنظيم جيشه، وجعل على رأس كل فرقة مُقدَّماً من خاصة مماليكه، ومنحهم رُتباً وألقاباً حتى اصبحت لهم سلطة الأمراء. وقد عُرفوا بالمماليك البحرية لوجود قلعتهم على النّيل، وسماهم بعض المؤرخين مماليك الصالحية، نسبةً إلى الملك الصالح.

وقد بذلت شجرةُ الدر قصارَى جهدها لدعمهم، وتعزيز قوَّتهم، ليصبحوا درع البلاد الواقية، وحصنها المنيع، فكانوا عند حُسن الظنّ بهم، وانتصروا في جميع المعارك التي خاضوها.

وأبى القدَر إلا أن ينغّص عيش شجرة الدر، ويطعنها في الصميم، فسلبها ولدها «خليل» وهو ما يزال طفلاً. فحزنت عليه حزناً عظيماً أفقدها بهجة الحياة، وكاد يقضي عليها. هكذا كل أُم.. أليس ولدها قطعةً من نفسها؟ إلا انها تجلّدت، وصبرت. فرأى الملك الصالح من قدرتها على التحمّل ما يعجز عنه عظماءُ الرجال،

وشرّفها بلقب الأمومة ، خصوصاً بعد وفاة ابنها ، فكانت تدعى طوال حياتها : « عِصْمَةُ الدين أم خليل » .

ولما بدأ الصليبيّون الغزاة زحفهم العدوانيّ على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، وكان مهووساً ، تناست شجرةُ الدر حزنها على وحيدها ، وأضحت قوةً فعالة هائلة . يومذاك تكشّفت تلك المرأة عن عقلٍ جبار يستدرك الأمور ، ويوجّه الرجال ، ويجود بالإرشاد في حينه . وأبدت إرادةً فولاذية لا يعتريها الوهن ، وشجاعةً مؤمنة بالنصر ، لا تحسب للخطر حساباً . إنها لم تكن زوجة ملكٍ همّها اقتناءُ الجواهر ، والتبذّل في الأخلاق ..

وقد رأت يوماً سحابةً من الهمّ على جبين زوجها الملك ، فقالت له بحماسة ملتهبة :

ـ أُقسم لك ، يا مولاي ، أن الاعداء الصليبيّين سيرتدّون عن بلادنا ومقدّساتنا خاسرين ، خائبين في حملتهم هذه ، كما ارتدّوا في حملاتهم السابقة . فقُوّاتنا

لا تُقهر ، ورجالنا أبطال ، وأبناء الشعب في مصر معنا ؛ وهم يبذلون دماءهم ذَوداً عن شرفهم وبلادهم .

فابتسم لها الملك الصالح ابتسامة عريضة تَنِمُّ عن الرضا والتفاؤل ، ثم قال :

ـ ما خاب فألكِ بالأمير فخرِ الدين ، يا أم خليل . لقد أوعزتِ بتعيينه قائداً عاماً لجبهة القتال ، فاذا به بطلٌ محنَّك ، يضرب العدو بلا هوادة . هذه أخباره الأخيرة تقول إنه يصول ويجول كالأسد ، فَيَقْذِفُ الرعب في قلوب الأعداء أينما حلّ ، وكيفما توجه .

فتنهّدت أم خليل بارتياح مِلءَ صدرها وأجابت :

ـ بارك الله الأمير فخر الدين ! لقد توسَّمتُ فيه الخير يومَ رأيتُه من شُرفة القصر يدرب الفرسان على القتال ، ثم سمعته من وراء الستار ، يتكلم في مجلس الملك ، ويصف أحوال العدو وصفَ مطّلع خبير . لقد كان يتحدث عن أفضلِ الطرق لقهر الصليبيّين حديثَ قائدٍ مجرّب ، فلمستُ في نبرات صوته معاني الثقة بالنفس ، والاستعداد للبذل والتضحية ... وها هو يحقّق الآن ما عقدنا عليه من

آمال ، ويلقي على الأعـداء درساً بليغاً لن ينسوه . وهو الآن على رأس جيش صغير بالنسبـــة إلى قوّات الغزاة المعتدين ، فكيف به لو أرسلْنا اليه النجدات يقودهـا عزّ الدين أيبك ، ورُكن الدين بيبرس ، وقلاوون ، واقطاي ؟

فهبَّ الملك واقفاً وهو يقول :

ـ إنها لفكرة رائعـة ، والله ! فانتِ ، يا أم خليل ، كلّك بركة وخير .

كان الصليبيون قد شنّوا على الشرق حملتهم السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ، كما تقدم ، فأبحرت قوّاتهـم الضخمة من ميناء مرسيليا على ألفٍ وثمانمائة سفينـة ، ونزلت على السواحل المصرية في صيف عام ١٢٤٩م . وقد بعث الملك لويسُ إلى الملك الصالح رسولاً يُنذِره بوجوب الخضوع والتسليم ، فكان جواب الملك الصالح مثالَ العُنفوان والإباء : لقد احتقر وقاحة لويس وقرّر أن يُريَه أن شعب مصر يحميها . وهكذا اندلعت نيران حربٍ شديدة .



الصليبيون في الحملة التاسعة

ولقد أحرز المعتدون في بادىء الأمر بعض النجاح ، وتمكنّـوا من الاستيلاء على مدينة دميـاط . وكان الملك الصالح مريضاً يعاني آلام الحمى الشديدة ، فكاد الخوفُ يسيطر على النفوس لولا شجرةُ الدر ، وقوة إيمانها بالنصر ، وما تحلّت به من العزم والشجاعة .ها هي تبعث في صدور الرجال روح الثبات والاستبسال . انهـا تمنح الشجعان كثيراً من العطايا والمكافـآت ، وهم يجاهدون جهـاد الجبابرة .. واستغرق القتال ستة أشهر ظلّـت المعركة فيها على أشدها .

في هذا الموقف العصيب اشتـد المرض على الملك الصالح ، فمـا لبث ان فارق الحياة في أواسط شعبان سنة ٦٤٧ هجرية (١٢٤٩ م.) . يا لهـا من مصيبة فاجعـة ..

كيف تتصرف شجرة الدر !!

لقـد أدركت حَرَج المأزق الذي أوقعها فيه القدر ، وأيقنت ان مصير الحرب والبلاد أصبح بين يديها . وكان أقـلُّ تخاذل منهـا يؤدي إلى انتشار الفوضى ، وتقهقر الجيوش الاسلامية ، ومن ثم انتصـار الغزاة الصليبيين .

فهل تسمح بذلك زوجة نجم الدين !! كلا .

لقد حزمت أمرها معتصمةً بكل ما فيها من القوة والصبر ، وقررت ان تتابع القتال كأن شيئاً لم يحدث ، أما نبأ وفاة الملك الصالح فكتَمَتْه عن الجميع، لئلا يسود الذعر وتخرب البلاد. وبخاصةٍ أن ولي العهد غياثَ الدين توران شاه بعيدٌ في حصن كيفا . والطامعون بالعرش كثيرون .

وفي ليلةٍ خطيرة استدعت شجرةُ الدر الأميرَ فخر الدين الذي كانت تَثِقُ به ثقةً تامة ، وأطلعته على السر الرهيب ، ثم قالت له :

ـ لا يجوز أن يعلم أحدٌ بموت الملك قبل ان نسحق القواتِ الصليبية وننقذ بلادنا وعيالنا من شرها . فاذا علم الغُزاة ان العرش قد خلا من صاحبه طمعوا بنا ، وضاعفوا حملاتهم علينا . ولا تنسَ أن أمراء بني أيوب طامعون بالمُلك ، وهم ليسو أهلاً له. أما وليُّ العهد فهو ما يزال فتى عديم الحزم والتدبير لا يستطيع الصمود في وجه عدونا الزاحف بجيوشه الحاقدة الشريرة .

قال فخرُ الدين، وقد تهيّبَ الموقف، وعزم على بذل دمه في حومة الوغى :

- دبّري الأمر كما تَرَين، يا صاحبة العِصمة، واعلمي أني سيفٌ من سيوفك، أُنفّذُ أمرك حتى لو دفعتِني إلى الموت.

فاجابته شجرة الدر :

بارك الله فيك، أيها الأمير، فما شككتُ يوماً في إخلاصك، وجلّ ما أريده منك ان يظل موتُ الملك مكتوماً حتى يزول الخطر، وان ترسل الى حصن كيفا من يأتينا بوليّ العهد على جناح السرعة.

وفي تلك الليلةِ بالذات استدعت أمُّ خليل طبيبَ الملك وخادمَهُ الخاص، وأمرتْهما بغسل الجثّة وتحنيطها بعد أن أخذت منهما الأيمان المغلّظة بكتمان السر. ثم جعلتْها في نعشٍ مُحكَم، ونقلتها مع الأمير فخر الدين، عبر النيل، إلى قصر الروضة. واستمرّتْ مراسم القصر الملكي على حالتها الطبيعية كما كانت في

السابق .. تُرفَعُ الأحكامُ إلى الملك ليبدي رأيه فيها ، وتعُود وعليها توقيعه بالموافقة او الرفض.

كذلك ظلّت الأوامر تصدُرُ إلى القادة ، والرؤساء ، وأَمراءِ الجند ، وعليها خاتم الملك وخطّه . أما اذا طلب أحدُ رجال البلاط مقابلة الملك ، فكان يقال له : ان جلالته متعَبٌ لا يستطيع مقابلة أحد .



٤

توران شاه

بهذا التدبير الحكيم استطاعت شجرةُ الدرّ ان تنفّذ خطتها ببراعةٍ تثير الاعجاب،فانقذت العرشَ من تهافُتِ الطامعين به . ولكنهـا أدركت ان الاستمرار في كتمان وفاة الملك الصالح أمرٌ غير ممكن،وبخاصّةٍ أن تردّد الأمير فخر الدين ، دون سواه على القصر ، أثار تساؤلَ الناس عن الأسباب التي جعلت الملك يخصّ هذا الامير وحـده بعطفه .

غير ان جهود « أم خليل » لم تذهب سُدى ، بـل أدّت الى النتائج المرجوّة : لقـد هُزِم الصليبيّون في معارك حاسمة ، وارتفع كابوسُ الخطر عن وادي النيل ، كما وصل وليّ العهد من حصن كيفا .

عندئذٍ تنفّست شجرة الدر مِلْءَ صدرها ، وقد أحسّت بنجاح مساعيها ، وانتهاء قلقها . فاعلنت وفاة الملك الصالح ، واصدرت أوامرها الى كبار رجال الدولة والجيش ان يُقْسِموا يمين الولاء للملك الجديد : غياث الدين توران شاه . ثم أمرت أن يُدعى له على المنابر في المساجد ، فاستتبّ له الأمر ، وسارت أعمال الدولة في مجراها الطبيعي .

إلا ان هذه التدابير الحكيمة لم تجعل من الفتى الضعيف الرأي رجلاً جديراً بالجلوس على العرش في مثل ذلك الزمان الحافل بالأحداث المصيرية . لقد كانت كل مؤهلاته انه ابن ملكٍ ،وما أكثر أبناء الملوك المعتوهين!

ولما علم الصليبيّون بموت الملك الصالح شدّدوا هجومهم على مدينة المنصورة في الدلتا . وكانت شجرة الدرتنتظر هذا الهجوم وقد استعدّت له، وبلغت بها الحماسة حداً جعلها تشارك بنفسها الأهالي والجنود في صدّ غارات الاعداء ، وترسم خطط القتال مع قادة الجيش، كما تشرف شخصياً على تنفيذها . ها هي تراقب عن كثب سَيْرَ

المعارك ، وترسل النجدات الى المقاتلين بلا توقّف . لقد أحبّت النيلَ وأرضه ، كما أخلصت لدِينها : فهي تصدّ عنه بكل ما تستطيع .

وفي معركة المنصورة استعمل المسلمون سلاحاً جديداً للمرة الأولى هو النار الاغريقية . فأخذت المجانيق تقذِفُ العدوّ بكُرات ٍ كبيرة من المواد الملتهبة عوضاً عن الحجارة ، فانتشر الحريق في صفوف الصليبيين ومعسكراتهم . وصدَف أن هبّت عليهم الرياح آنذاك ، فكانت ريحَ الهزيمة المنْكرة . فانكفأوا خاسرين قد ملأ الرعبُ قلوبهم .

وفي هذه الأثناء أبلى الامير فخر الدين بلاءً حسناً وانتقم انتقاماً باهراً من الأعداء الذين كانوا قد تغلّبوا عليه في معركة دمياط . وانقضّ ركن الدين بيبرس البندُقْداري برجال الحرس السلطاني على الغزاة فصدّهم عن باب القصر في المنصورة ، ومزقهم شر ممزّق .

ثم إن المصريين أحرزوا انتصارهم الحاسم في اليوم التاسع من شباط عام ١٢٥٠ ، فأسروا قائد الحملة الصليبية

ملكَ فرنسا لويس التاسع ، وأنزلوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان ، وانتدَبوا الخادم صُبيحاً المعظمي لحراسته .. وما تزال آثار هذه الدار قائمة حتى اليوم ، منذ أكثر من سبعةِ قرون .

أما الملك الجديد توران شاه ، فعوضاً عن أن يبادر إلى مكافأة أبطال الجيش على ما بذلوه من جهود لإحراز النصر العظيم ، نَقِم عليهم ، وأعلن عزمه على قتلِهم دون أي سبب إلا أنهم كانوا رجال أبيه ...

كان يصفُّ الشموع ، ويأخذ رؤوسها بالسيف وهو يقول : « هكذا سأفعل بالمماليك البحرية ! »

ولم يكتفِ بهذا القدر ، بل تعمد إهانة كبار الأُمراء ، والحطَّ من قدرهم ، فقرَّروا القضاءَ عليه .

وذات يوم ، جلس الملك بين أصحابه في موكب فخم ، ورجالُ الحرس أمامه وفي أيديهم عصيٌّ كُسِيَت بالذهب . ولما وقع نظره على أُمراء الجيش رفع رأسه وضحك كأنه يقول لهم : « إني سلطانكم رغم أُنوفكم ! » فأَضمروا له الشر .

ولما توقف الموكب ، وأحضر الطعـــام أمام الملك انقضّ المماليك على توران شاه بالسيوف ، وضربه أحدهم فقطع أصابعه .

ولم يكن توران شاه يتوقع هـــذه المفاجأة ، فنهض مذعوراً وفرّ هارباً ، ولجأ إلى برج خشبي وأغلق وراءه الباب ، وأضرم المماليكُ النار في البرج ، فالقى الملك بنفسه في النيل ، وراح يسبح والسّهام تأخذه من كل ناحيـــة وهو يصيح :

ـ خُذوا مُلككم ، ودعوني أعـــود إلى حصن كيفـــا !

وكانت آخرة أمره أن غرق في الماء فانتشل جثّته الصيادون .

لقد مات توران شاه على هذه الصورة لأنه لم يُحسن سياسته مع الذين كانوا حماة الوطن ، وأصحـــاب القوة الفعّالة في البلاد ، فاتّجهت الأنظار إلى شجرة الدّر . وتذكّر المماليك مواقفها البطولية في محاربة الصليبيّين ، فقرروا أن يُجلسوها على العرش .

وجاء عزّ الدين أيبك ، كبير قادة الجيش ، يقول لها:

ـ يا صاحبة العصمة ، أنتِ الآن ملكة المسلمين !

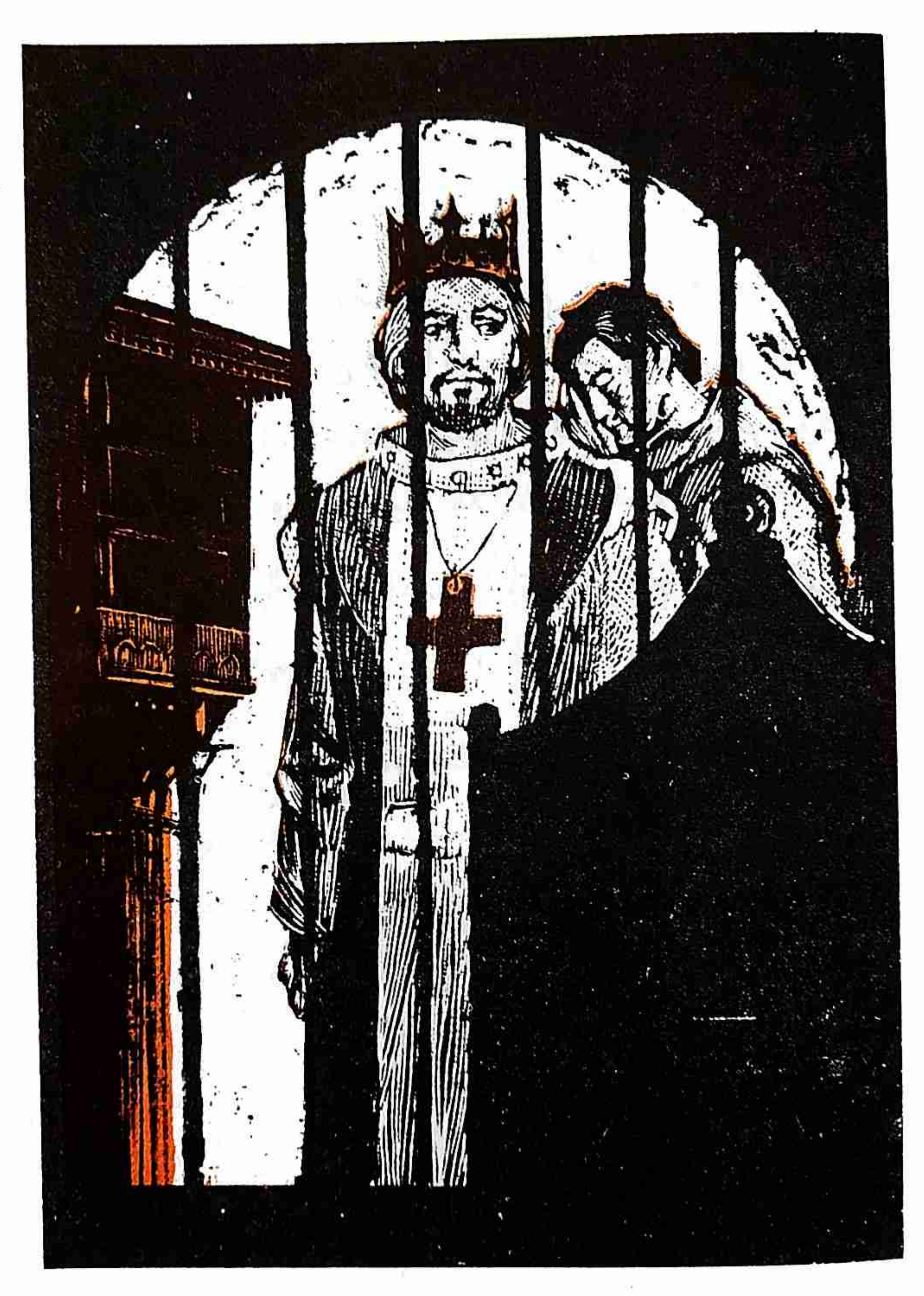
وكانت تنتظر هذه النتيجة بعد مقتل توران شاه ، إلا أنها تظاهرت بالدّهشة والاستغراب وأجابت :

ـ ملكةُ المسلمين ؟ أنا ؟ ماذا تقول أيها الأمير ؟

فأجاب :

ـ أجلْ ، أنت ملكة المسلمين ، وعصمة الدنيا والدين ! هذا ما أجمعَ عليه أمراء الجيش . لقد رأوا أن حرم مولانا الملك الصالح ، رحمه الله ، وأم ولده خليل ، وأعزّ الناس عليه ، هي السيدة العاقلة ، المدبرة ، والجديرة بالجلوس على العرش ، لأنها تغار على البلاد ، وتحسن سياسة الدولة ، وتحمي الديار من الأعداء .

ـ حسناً ، لكنّي أترك هذا الأمر لك ، فعليك أن تدبّر المملكة ، وان توزّع المناصب على الرجال الأكفاء . ولست أطلب اليك إلا ان تخصّ بعنايتك الأمير ركن الدين بيبرس ، فهو من خيرة الأمراء وأشدّهم غيرةً على ديار المسلمين .



لويس التاسع أسيراً

وفي اليوم التالي احتفل المماليك البحرية بجلوس شجرة الدر على عرش مصر ، فاستقبلتهم من وراء الستار ، وخاطبتهم قائلة :

« إني شاكرة لكم مروءتكم وحسن ظنكم ، ولا يسعني إلا ان أوافق على ما أجمعتم عليه ، ولكني لم أقبل هذا المنصب إلا لاعتمادي عليكم ، وثقتي بكم..فانتم سيوف هذه الدولة ، ولا استطيع عملاً إلا إذا أخذتم بيدي ! »

فهتفوا باسمها ثم غادروا القصر ، فودعهم عزّ الدين أيبك وشيّعهم الى الباب الخارجي .

٥

أول ملكة في الاسلام

أطلَّ على القاهرة يوم بهيج ، وكان النـــاس في هرج ومرج ، يستعدُّون للاحتفال بالحدث العظيم .

ازدحموا في الشوارع والساحات ، بـــين راكبٍ وراجـل ، رجالاً ونساء ، فغصّت بهم الساحـة الواسعة المنبسطة أمام القلعة. وكان فيهم الباعة يحملون الكعك ، والحلويات ، والفواكه منادين على سِلَعهم ، وقد سادت الفوضى ، وتدافع المزدحمون بالأكتاف والصدور .

وفي بعض الأماكن المنفردة ، في أطراف الساحـة ، عُقدت حلَقـات للبحث في الحدَث العجيب والأول من

نوعه في الاسلام ، وهـو : تنصيب امرأة ملكةً على المسلمين .

قال شابٌ كان يحمل كتاباً خرج بـــه من الجامع الأزهر ، وهو من محبِّذي المماليك البحرية :

ـ لِمَ نستغربُ جلوس « أم خليل » على العرش ؟ ألم تتولَّ السلطانة رضيّة شؤون الملك في دلهي طوال أربع سنوات ؟ ألم تحكم تركمان خاتون ، والدة السلطان محمد بن تكشي ، بلادَ خوارزم وخراسان ؟ ألم تكن زُبَيْدَةُ سيدةَ بغداد في عهد الرشيد ؟ وإذا رجعنا قليلاً إلى ما قبل الإسلام ، أفلا تملأ نفوسنا عظمةُ بلقيس ، وكليوباترة ، وزنوبيا في أرض تدمر !

وزايدَ آخر فقال :

ـ أليست شجرة الدر زوجَ الملك الصالح ، وأمَّ ولده، وقاهرةَ الصليبيِّين، وعقلَ الدولة المدبر الواعي ؟! لقد اعترف الأبطالُ بسداد رأيها ، وشجاعتها ، وأعربوا عن إعجابهم بمواهبها الفـذة .. فلِمَ لا تجلس على عرش مصر ؟

فردٌ ثالث وهو يكاد ينفجر غيظاً :

- هذه واللهِ بِدْعة ! فهل خلتْ بـــلاد مصر من الرجال لتحكمها امرأة ؟

وقبل أن يكمل الرجل كلامه سُمِـع صوت الأبواق وقرع الطبول . ثم أطلّ موكب المماليك البحرية متوجهاً صوب القلعة ، وفي مقدّمته كبـــار الفرسان في ملابسهم المذهبـــة ، اللامعة تحت الشمس . وكان خلفَهم هَوْدَج مِحَفّةشجرة الدرّ تحمله البغال ، وقد أُلقيت عليه ستائر الحرير المزركش ، ويواكبه فرسان من المماليك في ثيـــاب زاهية الألوان . وجاء خلفهم حمَلةُ الرمـــاح القصيرة فكوكبة من الرمّاحة ، فجماهير الشعب المائجة تتصاعـد منها الهتافات والزغاريد .

ووصل الموكبُ إلى باب القلعة المواجـــه للقاهرة ، فاستقبلته بعض فصائل الجند وجعلت تمنع النـــاس من الدخول ، وقد أغلق باب القلعة الآخر منعاً للازدحام في داخلها .

ودخل الموكب.. فظلّت جماهير الشعب في الخارج ،

فيما كانت الطبول تقرع ، وأصوات الأبواق تتجاوب بلا انقطاع . وما انفكّ الموكبُ سائراً حتى بلغ البابَ الداخلي ، ففُتح أمامه ، ولم يتجاوز عتبته سوى الخاصّة من الأمراء وأرباب المناصب الرفيعة .

وفي رواقٍ فسيح تحفُّ به الأبنية المخصّصة للسكن ترجّلَ الفرسان ، وأُنزلت شجرة الدر من مِحَفّتها ، ومَشت على السجاد بين الأعلام والرياحين والأزهار. فسار عز الدين أيبك وكبار الامراء بين يديها حتى بلغت قُبّةً من الحرير المطرّز كان يحملها نَفَرٌ من كبار القادة ، فدخلتها مع وصيفاتها و أُرخيت عليهنّ الستائر .

وتحرّكت القبة حتى بلغت الإيوان ، وفيه سرير السلطنة الذهبي ، فجُعلت القبة فوقه .. وجلست شجرة الدر عليه من غير أن يراها أحد من الحاضرين .

ودخل قاضي القضاة فجلس إلى يمين القبة ، وجلس وراءه أمين بيتِ المال مُناظرُ الحِسْبَة ، وإلى يساره أمينُ السر وبعض أرباب المناصب ، والشيوخ والمستشارون .

وأمام القبّة في وسط الإيوان ، جلس الأمير عز الدين أيبك ، قائد الجند العام ، وكبار أمراء المماليك . وكان خلف السرير صفّان من رجال الحرس وراءهم الحجّاب والخدم .

وجيء بجماعة من الأسرى الصليبيّين للتذكير بالانتصارات الحاسمة التي ساهمت فيها الملكةُ الجديدة مساهمةً فعّالة لا يجهلها أحد .

ولما استقرّ الحاضرون في أماكنهم ، نهض الأمير عز الدين أيبك وخاطبهم قائلاً :

ـ أيها الأمراء والقادة ، لقد علمتم جميعاً بمصير الملك توران شاه ... إنه أساءَ التصرف ، وحاول التنكيل بجُنْدِ هذا البلد ، وهم درعُ الدولة وسيفها . وليس فيكم من لم يشهد بلاءَهم في حرب الإفرنج المعتدين زمنَ الملك الصالح ، رحمه الله . ولما خلا سرير الدولة ، لم نجدْ من هو أولى به من مولاتنا صاحبة العصمة شجرة الدر أم خليل وزوج الملك الصالح . وقد أجمع رأيُ الأمراء والقضاة على اختيارها ملكة ، تتولى شؤون المملكة بمساعدة المخلصين

الأوفياء من أصحاب الكفاءة . أمـــا حَمَلَةُ السيوف فتعهدوا بطاعتها لإحقاق الحق ، وحماية الشرائع والدين . ونحن نحتفل الآن بتنصيب مولاتنا صاحبــة العصمـة أم خليل ملكةً ، وسندعو لها على المنابر بعد الدعاء لمولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله ، الخليفة في بغداد . وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم .

فماذا ترون أيها الكرام والأفاضل !!

وتقدم قاضي القضاة فدعا للملكة قائلاً : « واحفـظْ اللّهمّ الجهةَ الصالحة ، ملكةَ المسلمين ، عصمةَ الدنيـا والدين ، أم خليل صاحبة السلطان الملكِ الصالح » .

واستطرد عزّ الدين أيبك قائلاً :

لقد عهدتْ صاحبةُ العصمة إليّ تدبير المملكة باسمها ، وولّت الأميرَ ركن الدين بيبرس شؤون القصر والقلعة ، وأمرتني ان أثبّت أصحاب المناصب الموالين لنـا ، من أصحاب الأقلام ، وأصحاب السيوف .

ثم أشار الى صاحب الستار فأزاحه ، وبـدت شجرةُ

الدر على سرير المُلك تحت القبة ، وقد أرخت النّقابَ ، وعلى رأسها العصائبُ السلطانية الصفراء تحمل ألقاب الملكة مطرّزةً بالذهب . فهتف الناس داعين لها ثم أُرخي الستار من جديد .

وأكمل عز الدين خطبته قائلاً :

« سنحتفل قريباً بقراءة المرسوم الذي يَرِدُ علينا من أمير المؤمنين في بغداد تأييداً لسلطنة مولاتنا ، حفظها الله »

وقبل ان يتفرق الحاضرون تقدم بعض رجال الحرس يحملون الأطباق ، عليها صُرَرُ النقود ، فوُزّعت على على الجميع ، وكانت كل صُرّةٍ تحمل اسم صاحبها مكتوباً عليها .

وبعد توزيع العطايا أعلن الامير عزّ الدين ان الملكة أمرت بنقل دار السلطنة من جزيرة الرّوضة إلى القلعة التي تمت فيها مراسم التنصيب .

ولما َخلَت القلعةُ من المحتفلين انتقلت شجرةُ الدر

الى قصر السلطنة ، وأمرت الخدم بالانصراف ، وخلت بنفسها تستعرض ما مرّ بها في ذلك اليوم التاريخي .

تذكّرت صباها وشبابها ، فتراءت لها صور ومشاهد من نضالها الطويل . فزادها ذلك شعوراً بمسؤوليتها ، وتصميماً على حماية البلاد ، وتعزيز الجيش ، ورفع مستوى الشعب .

وألقت نظرةً على المستقبل ، فرأت انه لا يخلو من المتاعب ، وأن الخطر الصليبيّ ما يزال يهدّد البلاد ، ولكنها كانت كبيرة الثقة بجيشِها الباسل . فما أن تبادرت هذه الفكرة الى ذهنها حتى غمرت نفسها موجةٌ من الطمأنينة ، فاشرق وجهُها وتنفّست ملء صدرها .

وتوالت الأيام هادئة رتيبة ، فابدت الملكةُ من المقدرة والجدارة في تصريف الدولة ما أطلق الألسنة بالثناء عليها .

وقد لمس الجميعُ ما تتحلّى به من رحابة الصدر ، وحسن التدبير ، فأُعجب بها رجال البلاط ، وأطاعوها راغبين هانئين ، لكثرة ما خلعت على الأمراء ، وتصدقت على الفقراء ، ونشرت راية الأمن والسلام .

ولم يَفتْها أنَّ كونها امرأةً هي الحجة الوحيدة التي يتّخذها أعداؤها ليُنكروا عليها حقها في الجلوس على العرش ، فحرَصت على أن تُدعى بأعزّ ألقابها عليها وهو : « أم خليل » ترسيخاً لأمومتها في أذهان الناس .

ولعلّها اختارت لقب « المستعصميّة » استدراراً لعطف الخليفة «المستعصم» عليها، فقد كانت تشعر في قرارة نفسها أنه من الصعب ان يوافق على تنصيبها ملكة .

وقد صحّ ظنُّها ، وتحقق ما كانت تخشاه . فلم يدم مُلكها سوى ثمانين يوماً ، ثم وصل رسول الخليفة،فاستقبله الأمراء في القلعة ، وكان ركن الدين بيبرس غائباً في دمياط .

كانت شجرة الدر جالسةً على سرير الملك ، وعلَيها الزيّ الذي لبسته يوم التنصيب ، ومن حولها وصيفاتها ؛ ووراء الجميع صفّان من رجال الحرس . ولم يخفَ على الذين راقبوا ملامحها وحركاتها أنها كانت مضطربة في ذلك اليوم ، إلا انها تجلّدت ، وأظهرت رباطة الجاش .

وفي هدوءٍ مَهيب سُمع صوتُ عزّ الدين أيبك يقول :

ـ أيها الأمراء ، هذا رسولُ مولانا الخليفة ، أمير المؤمنين المستعصم بالله ، حفظه الله ، ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا ، فاسمعوا له ، وأطيعوا ما فيه .

وتقدم الرسول فوقف على ِمنَصةٍ منخفضة وفض الكتاب ثم قرأ ما معناه :

« من أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين إلى أمراء الجند والوزراء في مصر . السلام عليكم . وبعد ، فقد بلَغَنا انكم ولّيتم أمركم شجرة الدرّ صاحبة الملك الصالح ، رحمه الله ، وجعلتموها سلطانة عليكم . فاذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فأخبرونا ، ونحن نرسل إليكم من يصلح لها . والسلام . »

وقوبلت هذه الرسالة بضجيجٍ كأنه هدير البحر ...

أما شجرةُ الدر ، فامرت بإزاحة الستار الذي كان يحجبها عن الناس ، وقالت بصوت هادىء موزون ، في نبراته كلُّ معاني العِزة والإباء :

« يا معشرَ الأمراء ، سمعتم ما أمَرَ به أمير المؤمنين ،



الملكة شجرة الدر والفرمان

وطاعتهُ فرضٌ على كل مسلم . ولقد صدق ، حفظه الله ، فالنساء لا يصلُحن للسلطنة . وأنا لم أقبل الجلوس على العرش إلا عملاً برأيكم ، ورغبةً مني في استقرار الاحوال بعد اضطرابها . أما الآن ، وقد استقرت الأمور ، وسمعنا رأيَ مولانا الخليفة ، فإني أخلعُ نفسي ، وأطلب إليكمُ ان تختاروا من تَرَوْنه جديراً بهذا المنصب ، وأنا أول الخاضعين له ! »

وكان هذا الموقف رائعاً ، رفع مرتبة شجرة الدر إلى الذُّروة في نفوس محبّيها والمقدّرين لمواهبها .

وما كادت تفرغ من كلامها حتى ارتفع صوتٌ من وراء الحجاب يقول :

ـ لا نقبل سلطاناً علينا إن لم يكن من آل أيوب .

واتجهت الانظار الى كبير القادة عزّ الدين أيبك ، فنهض وقال :

ـ لا أعرف بين الأيوبيّين من هو أجدر بالملك من مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود ، ولكنّه صغير السنّ .

فاجابه رسول الخليفة على الفور :

- لن يؤثر عليه صِغَرُ سنه . فانت قائد جنده ، ومدبّر أموره ، فما رأيكم ، أيها الأمراء ؟

فصاح الجميع :

- هذا هو الصواب .

وجِيء بالأمير الأيوبيّ الصغير ، فأُلبس شارات السلطنة في نفس ذلك اليوم .

وكانت شجرة الدر على سريرها ترى وتسمع . ولما تمت مراسم تنصيب الملك الجديد أُسدل على « ام خليل » الستار ، فتنفّست مِلءَ صدرها وقالت :

- حَسْبي أنّي أولُ امرأة تولّت الملْك في الإسلام...



٦

أيام حافلة بالاحداث

لم تكن الثمانون يوماً التي أمضتها شجرة الدر على عرش مصر أيامَ طُمأنينة وارتياح ، بل كانت حافــلةً بالمتاعب والقلق . ذلك أن تولّيها شؤون المُلْك لم يصطدم بمعارضة الخليفة العباسيّ وحده ، بل أثار عليها الأُمراء في دمشق وبغداد . لقد اتّهمها بعضهم جهاراً بالتحريض على اغتيال توران شاه ، فوضعت كل اعتمادهـا على عزّ الدين أيبك ، وجعلته قائداً عاماً لجيشها. ثم قرّرت أن تقترن به ، ظنّاً منها أنها تستطيع أن تظلّ قابضة على زمـــام الحكم من ورائه ، بالنظر إلى سيطرتها عليـه معنوياً ، وإلى ضعف شخصيته بالنسبة إلى ما كانت هي عليه من قوة الإرادة ، والحزم .

ولكنها قبل أن ترتبط به بعقد الزواج استدعتــــه وقالت له :

ـ أنت ، يا عزّ الدين ، سيفُ هذه الدولة ، وصاحب الفضل الأول على هذا العرش ، فليتني أستطيع أن أُقدّم لـك مكافأة على مستوى خدماتك .

فأجابها بكل أدب :

ـ تعلمين يا مولاتي ان حياتي مرهونة بإشارة منك . وجلّ مناي أن أفديكِ بدمي .

وآنستْ منه الإخلاص والضعف معاً ، فقالت :

ـ إني ملكة المسلمين أيها الأمير ، ولكـنّي امرأة . وواجب الحصَانـةِ يقضي بان تكون المرأةُ في عِصمـة رجل ، حتى لو كانت ملكة .

وكان عزّ الدين يتمنّى ويحدّث نفسه منذ حـين بأن يعرض نفسه على شجرة الدر ، لكنه كان ينتظر الفرصة لمفاتحتها بهذا الأمر . فما كاد يسمعها تتفوّه بتلك الكلمات حتى رقص قلبه سروراً وقال :

ـ لمولاتي الملكة أن تامر ، وعليَّ أن أطيع .

ـ ولكن حُرمةَ العرش تفرض عليك بعض التضحية ...

وأطرقتْ مفكّرةً ، فلم يتجرّأ على سؤالها عن نوع تلك التضحية. وبعد برهةٍ من الصمت الثقيل سمعها تقول:

ـ إن الملكة لا ترضى بان تكون لها شريكة في الزواج !

فنهض وقال بصوت متهدّج :

ـ إن زوجتي الأولى طالق !

ـ وابنك المنصور ؟ ألا يطمح إلى العرش متى رأى أباه زوجاً للملكة ؟

ـ إني أتخلّى عنه !

ـ لا تتخلَّ عنه ، بل يكفي أن تعلن أن العرش لن ينتقل إليه ، فأُم خليل عازمة على أن تنجب ولياً للعهد

فاكبَّ على يدها يقبّلها ثم قال :

ـ أما قلتُ لكِ يا مولاتي ، إنّ لك أن تامري وعليَّ أن أطيع ؟

وما هي إلا أيام حتى عُقد قِران الملكة على عز الدين أيبك ، وانصرفت بكل قواها إلى تصفية الحملة الصليبية السابعة . ففرضت على الغُزاة المهزومين شروطاً قاسيةً اضطروا إلى الإذعان لها صاغرين . وطلبتْ فِدْيةً للملك لويس الأسير قدرُهـا أربعمائة ألف دينار ، فبادرت زوجتُه الملكة مرغريت إلى دفعهـا . فَعَمَرَتْ بها خزينةُ مصر ، وفرغت خزينة الصليبيّين الذين أيقنوا أنهم فقدوا آخر أملٍ لهم بالنصر .

وفي شهر نيسان عام ١٢٥٠ أبحر آخر فوجٍ منهم على ما تبقّى لهم من السفن ، وزال خطرُهم كلّياً عن بلادنا إلى الأبد . وكان لشجرة الدر اليدُ الطولى في إحراز هذا النصر العظيم .

ولمّا تنازلت ، عملاً بامر الخليفة العباسيّ ، أصبح عزّ الدين أيبك سيد الموقف،لكون الملك الجديد موسى بن

صلاح الدين بن مسعود صبياً غِرّاً منصرفاً إلى اللعب لا يدرك من شؤون الملك شيئاً .

لم تشكّ شجرةُ الدر في ولاء عز الدين ، فأولتْه ثقتها كاملة ، مع أنه اتخذ اسم « الملك المعزّ » ، وراح يسعى جهاراً للاستقلال بالحكم ، ممّا أثار عليه نقمة الأمراء الأيوبيين .

وفي تلك الأثناء استولى الناصر ، صلاح الدين أميرُ حلب ، على دمشق ، وأخذ يُعِدُّ العدّة للزحف إلى مصر وإعادة الحكم الأيوبي إليها .

وأحسّ أيبك بالخطر ، فراح يحشد قواته لمواجهة الطوارىء . وقدّمت له شجرةُ الدر مساعداتٍ جليلة ، فكتبت إلى المماليك الموالين لها ، ووزّعت العطايا على الجند ، وأبدت من الحماسة ما شَحَذَ هِمَمَ الرجال وجعلهم يستعدون للاستبسال في الميادين .

ولما وصلت قوات أمير حلب إلى جوار القاهرة تصدّى لها أيبك على رأس جيش كبير ، فأنزل بها هزيمة

نكراء ، وطارد فُلولها حتى ابتعد آخر رجل منها عن الديار المصرية .

ويبدو أن أيبك سَكِرَ بخمرة ذلك النصر المبين ، فتناسى خدماتِ شجرة الدّر ، وازداد طموحاً إلى الاستقلال بالملك . فأخذ يستبدّ بالمماليك ، رفقائه في السلاح بالأمس ، خوفاً من أن ينازعوه سيطرته على المُلْك .

وكان أشدّهم خطراً عليه الأميرُ أقطاي الذي أعلن ، في أكثر من مناسبة ، أنه أجدرُ منه بالعرش . فحقد عليه أيبك ، وبات يتحيّن الفرص للبطش به .

وظلّت شجرة الدر أمينةً على عهدها لأيبك ، تُدافع عنه بكل ما أُوتيتْ من قوة الإقناع ، وتتفانى في نُصرته ، وتبذل كل جهدٍ لتدفع عنه الأخطار . وجعلت تحثّ المماليك على الإخلاص له ، والانضواء تحت لوائه .

وبقي هذا شأنها حتى تبين لها أن أيبك لا يحفظ لها جميلاً ، ولا يرعى لها شعوراً ، بل ينوي طعنها في الصميم ،

لا بإقصائها عن السُلطة فحسْب ، بل بجلْب زوجة له أخرى .

لقد بلغها أنه أرسل إلى بدر الدين لؤلؤ أميرِ الموصل يخطُب منه ابنته . وما كادت تفاتحه بهذا الأمر حتى زجرها صائحاً :

- إلزمي حدَّك يا امرأة ! فأنا الملك ، أفعلُ ما يطيب لي ، ولا أقبل اعتراض أحد .

وحاولتْ أن تسترضيَه ، فذكّرته بماضيهما المشترك ، وبما بذلت في سبيله من جهود ، فاستشاط غيظاً وصاح :

- إن يكنْ لأحدنا من فضلٍ على الآخر ، فإنه لي عليكِ ... فأنا أجلَسْتُكِ على العرش ، وأنا صُنتُ دولتك بحد السيف ، وما عليك الآن إلا أن تُذعني لمشيئتي ، وإلا ...

فاتّسعت عيناها ، واختلجت شفتاها ، ثم قالت بصوت مبحوح :

ـ وإلا ماذا ؟

ـ لن أتردد في إزالة كل عقبـــة تقف عثرةً على طريقي .

فاطرقتْ برهة ، ثم أجابت :

ـ إنّي بين يديك ، فَمُرْ بما تشاء !

ـ لا أريد هذه المخاصمات التي تزعجني وترهق أعصابي، ولا سبيل إلى تلافيها ما دمنا نعيش تحت سقفٍ واحد .

ـ أتريد مني الابتعـــادَ عنك ؟ فإلى أين تريدني أن أذهب ؟

انتقلي إلى دار الوزارة في القاهرة .

ـ أهذا هَجْرٌ ؟

فابتسم متهكماً وأجاب :

ـ بل هذا إكرام ... لا تنسي أني تجاوزتُ الستّين ، وأن مِنْ حقِّ مَنْ يبلغ هـــذه السنّ أن يطلب قسطاً من الراحة .



أيبك وشجرة الدر

فادركت أنه ينوي إخلاء قصر القلعة ليستقبل فيه عروسه الجديدة ، ولكنها تظاهرت بالتجاهل والموافقة فقالت :

- كما تريد ، فلن أنسى فضلك . وأمنيتي الكبرى أن أراك هانئاً سعيداً .

وكان صوتُها عميقاً فيه نبرات الصدق والإخلاص ، فتأثّر أبيك حتى كاد يلتمس منها المعذرة ، ثم قال :

- إفعلي ما يطيب لك ، وأقيمي حيث تشائين ، فانتِ السيّدة الكبيرة ، لا تعلو على كلمتك كلمة ، ما دمتِ لا تعارضين مشيئتي في شؤوني الخاصة .

- إني مستعدة لإطاعة أمرك .

ولمعت في عينيها الدّموع ، فخفضت رأسها ، ومضت إلى جناحها في القصر بخطىً بطيئةٍ متزنة ، لا يفوتها شيء من هيبة الملك وجلال السلطان.

وكاد أبيك يندم على ما بدَرَ منه،إلا أنه انصرف إلى التفكير بعروسه الجديدة . فرأى أن صراحته مع شجرة

الدر كانت ضرورية لتوضيح موقفه ، وللحصول على ما يريده من حرّية التصرُّف لينعَمَ بزواجه الجديد من غير أن يساوره قلق . وراحَ يتأهب لما ينتظره من أيام مقبلة حافلة بالبهجة والسرور .

٧

تحريض بيبرس

لم تُظهر شجرة الدر ذلك الخضوعَ المطلق لأيبك إلا كسْباً للوقت . أما في قرارة نفسها فقد أضمرتْ له الشرّ ، وصممت على البطش به . لقد غدَر بها بعدْ أن رفعتْه ..

وكانت كبيرةَ الإعجاب بركُن الدين بيبرس ، بالنظر إلى بلائه الحسن في مقاتلة الصليبيّين ، وإلى ما يتحلّى به من روح الفروسية والإقدام . لذلك استدعته في غياب أيبك لتبوح له بما في صدرها .

ولماَ مثُلَ بين يديها فاجاته قائلة :

ــ لقد طَفَحَ الكَيْلُ ، صحيحٌ أن الأطماع تُغيّر الرجال ، ولكن عزّ الدين بات لا يطاق .

واستولى عليها الغضب الذي حبسته في صدرها طويلاً ، وانفجر الآن .. فتهدّج صوتها ، وارتجفت يداها. ولما رأت بيبرس مُطْرِقاً لا يقول كلمةً واحدة ، استطردت قائلة :

ـ ما بالكَ لا تجيب ، يا ركن الدين ؟ ألا ترى أن أبيك يضحّي بأصدقائه دون سبب ؟

قال ، وقد شاقَهُ أن يستجلي كل ما في نفسها :

ـ لا أحسِبه طامعاً ، يا صاحبة العصمة . وبِمَ يطمع وقد جعلتِهِ صاحب الأمر حتى لا يرتفع فوق صوته صوت ؟

ـ وهذا ما يؤلمني ، يا ركنَ الدين ! فكلمّا زدُته قوةً ونفوذاً ، زادني نفوراً وغَطْرسةً .. فنحنُ نحافظ على وُدّه ، وهو يسعى للقضاء علينا .

وتزحزحت في مجلسها كأنها تتحفّز للوثوب ، فقال :

ـ يا صاحبة العصمة ، لا أظنّ عزّ الدين طامعاً بشيء ، ولكنه يعمل بإرشاد الخليفة في بغداد ..

وكان يراقبها من طَرْف خفيّ ، فرأى أنّ ذِكر اسم الخليفة العباسيّ أثار حِقدها ، وكاد يُخرجها عن حدها ، إلا أنها تجلّدت ، ثم قالت متصنّعةً الهدوء :

ـ أما علمتَ بأن أبيك خطبَ بنت بدر الدين لؤلؤ أمير المَوْصِل ؟

وهنا أدرك بيبرس أنّ شجرةَ الدر امرأةٌ أُصيبت في أنوثتها ، وزوجةٌ طُعِنتْ كرامتها ، فقال :

ـ ليخطبْ من يشاء ، فهذا لن يحطّ من مقامك ، يا صاحبة العصمة ... فأنتِ ركنُ هذه الدولة ، وعقلها الموجّه ، وقلبها النابض بالحياة .

قالت ، وقد غلبها الهمّ ، واستولت عليها الكآبة :

ـ خدعني أبيك ، أيها الأمير ، وهو يحاول تجريدي من كل شيء .. يحاول أن يطرحني بين الغلمان والخدم ، متناسياً فضلي عليه. إنه واللهِ لجاحدٌ ناكر الجميل ! ألا تعلم كيف أبعدَ السلطانَ الشرعيّ ، الملك الأشرف، عن عيون الناس ، ثم ألقاه في سجنٍ مظلم ، وحكم عليه بالموت

البطيء ؟! أما أخبروك بحملاته المنكرَة على الأمير أقطاي وهو رفيقُه في السلاح ؟! وهل تضمن أنه لا يدبّر مكيدة لك انت !! انه رجلٌ لا يتورّع عن خيانة اصحابه والغدر بهم .

وأحسّ بيبرس انها تحرّضه على أيبك فقال :

ـ لم يكن الملك الأشرف سلطاناً يوماً واحداً في حياته يا صاحبة العصمة ، فهو صورة جوفاء لا قيمةَ لها ولا معنى . ولعل عزّ الدين حَجَبَه عن الأنظار ليحفظ للعرش كرامته وحُرمته .

فتضايقتْ من هذا التفسير ، وأجابت :

ـ مهما يكن الملكُ الأشرف تافهاً فان علينا أن نحميَه ونحترمه ليدوم لنا هذا الملك . وإن لم نفعل تفجّرت الأطماع حولنا من كل جانب ، وسادت الفوضى / والعياذ بالله ! أمّا قولُك بأن أيبك يريد صيانة حرمة العرش فهي طيبة منك أكثر مما ينبغي .. إنه لا يدل على حقيقة ايبك .. فهو طاغية يريد ان يكون سلطاناً ، ويعتقد ان مبايعة الأمراء له واجب مفروض عليهم !

قال :

– ولكنّ الناس لا يخضعون إلا لملك من آل ايّوب .

فابتسمت هازئة واجابت :

ـ انك شجاع في القتال ايها الامير ، ولكنك قليل الخبرة في السياسة ودسائس القصور . أما رأيتَ أن أبيك اختار اسم « الملك المعز » ؟

ـ وما معنى هذا الاختيار ؟

–إنَّـــهُ رمزٌ لتجددِ الدولة الفاطميّـة التي قضى عليها صلاحُ الدين ، جدّ بني أيوّب .. وقد علمتُ ان عز الدين قد أغرى عدداً من الأمراء،فوافقوا على مبايعته، وهو يغتنم فرصة غيابك في دمياط ليُـنجز عملَـه أثنـاء غيابك ويجعلك أمام الأمر الواقع .

فاستاء ركن الدين من ذلك وكاد يتميـّزُ غيظـاً ، إلا أنه تمالك وقال :

– وما شاني في ما يريده عزّ الدين أو لا يفعـل ، يا صاحبة العصمة ؟ أنا جندي في جيش هذه الدولة ، أضرب بسيفها ، وأذود عن حياضها ...

ـ بل أنت بطلُها ، وأملُها الأخير بالخلاص مما يُعدّه لها عزّ الدين أيبك !

فأدرك عندئذٍ انها ما استدعته إلا لتحرضه على ايبك، فصمّم ان لا يتورّط ، وقال لها بقوةٍ هادئة لا تترك مجالاً للجدَل :

ـ يا صاحبة العصمة ، قلتُ لكِ إني جندي ، ولن أتخلى عن مهمتي وواجبي . ومهما يكن من الأمر فإني مسافر إلى بغداد بعد أيام ، ولستُ أدري متى أعود .

فاطرقت خائبة ، وقد استولت عليها الكآبة ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ رافقتَك السلامة ، يا ركن الدين . فاذهب إلى بغداد ، ولا تنسَ أن أيبك خائن ، لا يخدم إلا نفسه ... وكلما تقدّم في السنّ عاماً ، ازداد تصلّباً واستبداداً . ولا أدري الى متى استطيع تحمُّل غطرسته وجوره .

ونهضت متباطئةً ، فوضعت يدها على كتفه ثم

استطردت قائلة :

ـ قد تسمع في بغداد ما لا يسرُّك من أخبار القاهرة.

وبعد سكوتٍ تسوده الرهبة، رفعت رأسها وحدقت في عيني ركن الدين بقوة وإصرار ، ثم قالت :

ـ لن يكون أبيك لبنت لؤلؤ ، ولا إلى غيرها ، فأنا وحدي أعلمُ لمن سيكون ، وما هو المصير اللائق بطموحه المتمادي .

ومشت إلى جناحها من القصر ،فخرج بيبرس مرتبكاً، ومضى في سبيله لا يلوي على شيء .

٨

اغتيال أيبك !!

لم تُغمض شجرةُ الدر في تلك الليلة عينيها ، ولا وجد النُعاسُ إليهما سبيلاً .

لقد عاودتها الصوَر .. وانتقلت هي بتفكيرها إلى أيام شبابها في حِصن كيفا ، واستعرضت ما مرّ بها من أحداث حتى توقفت عند أيبك. فخفق قلبُها ، وامتلأت نفسُها مرارةً ، ثم انقلبتْ هذه المرارةُ حقداً قد ينفجر عمّا قريب ..

فنهضت من فراشها وخرجتْ إلى الشرفة كي تنظر إلى ظلام الليل، وترى النّيلَ يجري بهدوئه الدهريّ ، كأنه يهزأ بأطماع الناس وتهافُتهم على الأمجاد الزائلة .

لقد عبَـده الفراعنة ، وحقاً هو في جلالة إله ..

وأحسّت بها إحدى وصيفاتها ، فهرعت إليهـا تسألها ·

- أتريد مولاتي شيئاً فآتيها به ؟

فربّـتت شجرةُ الدر كتفهـا مستأنسةً بها ، ثم قالت :

- بارك الله فيك ، يا صفيّة ، فقد جئتِ في الوقت المناسب . أيقظي مرجاناً ، وليأتِني على الفور .

وما هي إلا لحظة حتى مَثُـلَ مرجان بين يدَي مولاته. وهو فتى من أبناء السودان ، صُلبٌ ، ضخم الرأس ، مفتول الساعدين ، متين البنية ، كأنه قُـدَّ من الصّخر . فخاطبته شجرة الدر قائلة :

- أتريد ان تعود إلى بلادك ، يا مرجان ؟

فارتبك قليلاً ، ثم أجاب :

- كلّ بلاد الإسلام بلادي .. أما الآن فحسْبي أني خادمٌ أمين لمولاتي ·

ـ هذا جميل ! لكنّ المرءَ يحنُّ دائماً إلى دياره ، حتى لو كان تاجراً وطنُه حيثُ يربح . ومن لا يخالجـــه هذا الشعور لا يكون إنساناً .

ولمّا لزم الخادمُ الصمت لايدري بما يجيب أعطته حَفنةً من الدنانير واستطردت قائلة :

ـ ستعودُ إلى ديارك ، يا مرجان، ولكنْ.. بعد أن تقدّم لي خدمةً خطيرة .

وبان على مرجان أنه انتعش وأحسّ باهمية نفسه :

ـ روحي فدى مولاتي صاحبة العصمة !

ـ ومتى أدَّيتَ المهمَّةَ أعطيتُك فرساً ، وكسوة ، وسيفاً ، وقدْر ما تستطيع أن تحمل من الذهب . والآن مَن عندك من الغلمان الأشداء ؟

ـ عندي ميمون ، ووضّاح ، وكُلَيب ، وعديّ ، وغيرهم .

ـ أواثقٌ أنتَ بانهم يفعلون ما تامرهم به ؟

ـ كل الثقة ، يا مولاتي .

فاستبشرتْ شجرة الدر بنباهته ، وقالت :

- حسناً ، عِدْهم بمثل ما وعدتُك به ، واستعدَّ للقيام بعملٍ تهتزّ له هذه الدولة .

فهبّ واقفاً وقال :

- لتأمرْ مولاتي بما تريد ! أتريدني أن أموتَ الساعةَ ؟

فضحكت متهلّلةً وأجابت :

- بل أريدك أن تحيـا يا مرجان ، وأن يموتَ سواك ... أن يموت من كَفَرَ بالنعمة ، واستخفَّ بحرمة العرش ، وتطاول على الكرامات !

- ومن هو يا مولاتي !؟ مُريني أفعلْ ما تشائين .

- هو عزُّ الدين أيبك ، قائد الجيش .. الطاغية الذي أبطرَه فضلُنا عليه ، ونسي ما أسبغْنا عليه من خيرات .

- أين هو يا مولاتي ، فأذهب اليه ، وأضع خِنجري في قلبه ؟

فابتهج قلبها بذلك وقالت :

ـ رُويدَك يا مرجان ! لا أريدك أن تغامر وحدك . فقد يتغلّبُ عليك . لكن ، استعدَّ للعمل غداً ، مع خمسة من رفقائك الذين تثق بهم . وانتظرْ إشارتي ، واعمل ما أوعز به إليك ، لا أكثر .

ـ سترى مولاتي أن مرجاناً جديرٌ بثقتها ، وما عليها إلا أن تأمره .

فصرفته قائلة :

ـ إذهب الآن ، وكن على استعداد .

ولما توارى مرجان في الظلام ، خلَت شجرة الدر بنفسها ، وهي مرتاحة إلى العمل الخطير الذي قرّرت تنفيذَه . لقد غدرها أيبك .. فعليه أن يدفع الثمن ..

ولِمَ لا تنتقم ممّن جرح شعورها ، ونال من كرامتها !!

لقد كانت زوجةً مخلصة أمينة ، وملكة حازمة صانت البلاد من شرّ الغزاة الصليبيّين ، وهي مستعدّةٌ لبذل حياتها في سبيل العرش والدولة . أما أن يستخفَّ بها أيبك ، ويحاول تحقيرها ، فهذا ما لا ترضاه أبداً .

وما انفكّت في تفكيرها وهي تقلّب أمرها على جميع الوجوه ، حتى طلع الفجر وبدت تباشيره في المشرق . وهبّت نسَمات عليلة تحمل أنفاس الرياحين فعبّت شجرةُ الدر منها ملء صدرها ، ثم استلقت على فراشها ، وأغمضت عينيها تستعرض في خيالها ما ينتظرها في يومها الجديد من الأحداث الجسام .

وطابَ لها نسيم الصباح فأغْفت ، وما استيقظت إلا على صهيل الخيول في الخارج ، وحركة الخدم في داخل القصر .

وجاءت إحدى الوصيفات تقول لها :

ـ وصل مولاي الملك المعزّ .

فنهضت ، ومشت إلى الملك تستقبله مرحّبةً به . فلما رآها باسمة الثغر ، تَبادر إلى ذهنه أنها خضعت لمشيئته ، وأذعنت للأمر الواقع . فتفاءل خيراً ، وقال لها :

ـ جئناكِ مبكّرين، يا أُم خليل، لنسأل متى تريدين الانتقال إلى دار الوزارة .



شجرة الدر ومرجان

فأجابت من غير أن يختلج في وجهها عصب :

ـ ساعةَ يامر الملك.. غداً أو بعد غدٍ، فنحن في ظلّه كيفما توّجهنا .

فاطمأنّ إلى أن قصر القلعة سيخلو له وحده، فصرف حاشيته وجلس قائلاً :

ـ هذا يومٌ من أيام الراحة ، يا أم خليل . حقاً إن المُلك حِمْلٌ يُرهق الرجال ويهدُّ الجبال .

فَدَنَت منه مستأنسةً ، وراحت تلاطفه قائلة :

ـ مَن كان مثلك لا يخشى التعب ، أيها الملك . فالبلادُ أمانةٌ في عنقك، وأمانها مرهون بهمّتك. فاعمل بما يوحيه وجدانك ، ولا تخشَ في الحقّ لومة لائم .

وسرّه تشجيعها بعد تلك المشادّة العنيفةِ التي حدثت بينه وبينها ، فأجابها قائلاً :

ـ إنّنا نلجأ دائماً إلى مَشُورتك ، يا أُم خليل ، ونسترشد بأصالة رأيك . فأنتِ السيدةُ الأولى في هذه الدولة ، مهما تختلف الأمور وتتبدّل الأحوال .

فادركت أنه يحاول أن يُفْهمها الحدود التي يجب أن تعمل فيها . فهي السيّدة العجوز المحاطة بنطاق من الاحترام .. تبدي رأيها إذا استُشيرت ، وليس لها أن تتدخل في شؤون الدولة . فقالت :

- حسْبي أن أقدّم للملك ما وهبني الله من الخبرة في معالجة شؤون الحياة .

فنزعَ سيفه ، وخلع عمامته ، وهو يقول :

- واللهِ إني لا أجد الراحةَ والطُمأْنينة إلا في جوارك ، يا أُم خليل ، فهل تأمرين بإعداد الحمّام ؟ لقد وعدت نفسي بالراحة التامة طوال هذا النهار .

فاجابت على الفور :

- حبّاً وكرامة !

وصاحت بإحدى وصيفاتها :

- أعدُّوا الحمام للملك . وتأكّدوا من أن الماء ساخن ، والمناشف جاهزة .

وتظاهرت بالاهتمام الكبير ، فيما كان أيبك يدخل حُجرته ليخلع ثياَبه .

وما كاد المعزُّ (أيبك) يدخل الحمّام ، حتى استدعت شجرةُ الدُّرّ مرجاناً وقالت له :

- أين أعوانك يا مرجان ؟

- هنا في الرواق ، ينتظرون إشارتك .

- هذه ساعتُك .. فايبك في الحمام . أُدخلوا عليه ، واضربوه حتى يموت .

فغاب مرجان لحظةً ، ثم عاد مع رفقائه وكلٌّ منهم يحمل هَراوةً من الحديد . فاشارت شجرةُ الدر إلى الحمام قائلة :

- بادِروا إلى العمل ، وإيّاكم أن تتركوه قبل أن يلفظ أنفاسه .

وفوجيء أيبك بالغلمان ينهالون عليه ضرباً ، فأرسل صيحتَين ، ثم سقط غائباً عن الصواب . وما انفكّ مرجان ورفقاؤه يضربونه حتى حطّموا رأسه وقضَوا عليه.

٩

بين اليأس والامل

استطاعت شجرةُ الدر أن تحيط ما فعلتْه بالكتمان طوال ذلك النهار . وفي صباحِ اليوم التالي تسرّب الخبرُ إلى خارج القصر ، فكان دويّه مجلجلاً بعيد الأصداء . .

نادى المنادي :

ـ مات الملك المعزّ !

فوقف الناس واجمين ، بين متسائلٍ وحائر . وكثر اللّغطُ ، وتضاربت الآراء ، وكثرت الظنون . .

ولم تفقِدْ شجرةُ الدر رباطةَ جاشها ، فاستدعت بيبرس لتُجلسَه على العرش وتحتميَ به ، فقيل لها إنه

سافر الى بغداد . ولجات الى سواه من المماليك ، وعهدها بهم لا يرفضون لها أمراً ، فأعرضوا عنها تحت وطأة الذهول الذي أصابهم .

وفي هذه الغَمرة من القلق والاضطراب انقسم المماليك قسمين : أحدُهما اتّهم شجرةَ الدر باغتيال عز الدين ، وحاول الآخر الدفاع عنها لاعتقاده أنها بريئة

قال الناطق بلسان الفريق الأول :

« لا ضمان لاستقرارنا إلا بالقضاء على هذه المرأة ، فهي مجرمة حقود ، تسفك الدماء لتظلَّ قابضةً على زمام الحكم ، فلا بدَّ من معاقبتها للتحرر من أحقادها ، وإنقاذ البلاد من مؤامراتها . »

وقال الفريق الآخر :

« أَنسيتم أنها قهرت الصليبيّين ، وملأت خزينة الدولة ذهباً ، وكافأت المجاهدين الأبطال ، وتصدّقت على الفقراء !؟ ألا تذكرون أنها صاحبة الملك الصالح الأمينة .

وأم ولده خليل ، والملكة التي عززت الجيش ، ورفعت شان الأمراء ، وأشاعت الأمن والطمانينة في الرعية ؟ »

واحتدمت المناقشة بين الجانبين وقتاً غير يسير ، فكانت الغلبة لمناصري الملك القتيل أيبك . وفيما كانت شجرة الدر تتسقط الأخبار قد استولى عليها الرعب للمرة الأولى في حياتها ، جاء أحد غلمانها يقول لها باكياً من شدة الخوف :

ـ مولاتي ! المماليك ناقمون علينا .. رأيتُهم يرفعون قبضاتهم صوب القصر متوعدين . وسمعتُ أحدهم يزمجر : « الويل لشجرة الدر ! الويل للقاتلة ! »

فوجمت برهةً ، ثم ارتعدت وكادت تعجز عن النهوض . إلا أنها استجمعت قواها ، على الرغم من يقينها أنها هالكةٌ لا محالة ، وصممت على الدفاع عن نفسها حتى الرمق الأخير .

وانتشر الخبر في القاهرة بسرعة البرق : « شجرةُ الدر قتلت الملك المعز غدراً ! » فانتقلت نقمة المماليك

إلى عامـــة الشعب ، وارتفعت الأصوات في الشوارع والساحات تصيح :

ـ الموت للقاتلة !

وبلغت هذه الصيحات أسماعَ سكان القصر ، فهرعت شجرةُ الدر الى جمع مـا استطاعت من الذهب والجواهر ، ثم تسللّـت من القصر الى القلعة، واعتصمت بالبرج الأحمر، وكان ذلك في العام ١٢٥٧ .

وما هي ساعة ، حتى ركب المماليـــكُ وجاؤوا يحاصرون القاتلة في مَعقلهـــا الأخير . غير أنهم ظـّلوا في حملتهم تلك منقسمين : منهم من يريد البطش بشجرة الدر بلا هوادة، ومنهم من يطالب بإقصائها عن الحكم والمحافظة على حياتها وكرامتها ، بالنظر الى خدماتها السابقة ، وما أسدت الى البلاد من معروف لا ينكره أحد .

ولم يكن خلاف المماليك سراً فتناقل الناس أخباره، وانقسموا بدورهم حِزبين : أحدهما يناصر القاتـــلة ، والآخر يطالب بالاقتصاص منها. ولمّـا علمت شجرةُ الدر

مما يحدث حولها تشجّعت، وتجدّد الأمل في نفسها، فأرسلت أحد رجال الحرس يقول للمماليك :

ـ أم خليل تذكّركم بأنها ما جلست على العرش إلا بإرادتكم، وتلبيةً لرغبتكم. ولما صدر أمر الخليفة بتولية ملكٍ عوضاً عنها خلعت نفسها مختارةً غير مجبرَة لتجنّبكم التفرقة والاقتتال ، وها هي مستعدة الآن أن تذعن لمشيئتكم إذا حقنتم دمها ، وصنتم حرمتها من الامتهان .

فأجاب أحدهم :

ـ لتخرجْ حالاً من البرج الأحمر ، ولتخاطبنا وجهاً إلى وجه من وراء النقاب ، لنعرف كيف مات الملك المعز، ومن قَتَلَه ، وما هي أسباب اغتياله .

وخشي أحدُ خصوم الملكة الألّداء أن تؤثر في قلوب المماليك وعقولهم، إن هي ظهرت عليهم ـ شأنها في مختلف الأزمات والمواقف العصيبة ـ فاعترض صائحاً :

ـ لا نريد أن نرى للقاتلة وجهاً ، ولا أن نسمع لها

صوتاً ، فهي عدوّة الدين والوطن ... وما عقاب القاتل إلا الموت !

وامتشق سيفه محاولاً الهجوم .

واقتدى به بعض رفقائه المتحمسين ، فإذا بعشَرات ٍ من رجال الحرس يتأهبون للقتال ، وكان خلفهم الخدم والغلمان يحملون الرماح ، والعصيّ ، والهراوات . فقال قـائل :

ـ علامَ الاقتتال ، أيها القوم ؟ أما أرسلتْ هذه المرأة تقول لكم إنها مستعدة أن تنزل عند رغبتكم ؟ إمنحونا متسعاً من الوقت لنتدبر هذا الأمر بالتي هي أحسن ، فلا فائدة من تناحُر الإخوان !

واقتنع المتحمسون بوجاهـــة هذا الرأي ، فانكفأوا مشترطين أن يعاقَبَ القتلة إذا كانت هناك جريمة قتل . وساد نوع من الهدوء ، وكلٌّ من الجانبين في موقف الترقّب والاستعداد .

وأحسّت شجرة الـــدر أن الـكابوس الرهيب بدأ



المماليك يثورون

يرتفع عن رأسها ، فتنفست الصعداء ، وخُيِّـل اليها أنها قد نجت من الموت . وهذا أقصى ما كانت تصبو اليه ، وهي الداهية المحنَّكة في معالجة الرجال، وتكييف آرائهم ، واكتساب مودَّتهم وولائهم .

وكان الفتى النوبيُّ مرجان إلى جانبها ، يستعد للنضال دونها حتى الموت ، فجعلت تداعب رأسه قائلة :

ـ أبشِر ، يا مرجان ! فقد هدأت العاصفة ، وابتعد الاعصار ... وستعود مولاتك الى الجلوس على العرش ، وتعرف كيف تختار ، ومن تختار من الرجال الأكفاء المخلصين ، وأنت منهم في الطليعة !

فانكبَّ على يدها يقبِّلها بحرارة وإيمان،ثم أجاب:

ـ لو درى هؤلاء المماليك من أنت ، يا مولاتي ، وما تتحلّين به من السخاء ، والوفاء ، والشمم ،لجثَوا جميعاً على قدَميك خاضعين ، وحملوكِ الى العرش على الأعناق والهامات . وإذا أبوا إلا الإمعان في البغي ، ونكران

الجميل ، والتطاول على صاحبة العصمة سيدة هذه البلاد ، فليس لهم إلا السيف ، ولتسقطْ السماء على الأرض .

كان يتكلم بحرارة َمن احتلّ الإيمانُ قلبه ،فَصَقَلَ إرادته ، وشدّد عزيمته . فتأثرت شجرة الدر في أعماقها حتى لمعت في عينيها الدموع ، فقالت :

ـ أين كنت مختبئاً يا مرجان ، فما عرفناك ؟ أنظر اليّ ! أنظر ! اني أرى في عينيك وميض البطولة ، وألمس في نبرات صوتك معاني المروءة والإباء .. مدّ الله في أيامي لأُفسح لهذه المواهب في مجال التألّق والتجلّي على الناس.. حقاً إن الجواهر النادرة لمخبوءةٌ في أغمدتها .

فانتشى الفتى بهذا الثناء يأتيه من التي كانت صاحبة التاج والصولجان ، تحمل السلطان في قبضتها ، والموتَ والحياة بين شفتيها. وخُيِّل اليه أنه يخوض معركة فاصلة، ويخرج منها معصوب الرأس بإكليل النصر والأمجاد التي لا تبلى . فجعل يلامس سيفه بلطف وهدوء ، وقد رسخ في نفسه أنه مقدِم على أمر َجلَل.

وساور شجرةَ الدر شعورٌ بالارتياح، إذ ساد الهدوء في الخارج، وتخلى رجال الحرس عـن موقف التأهب. وقيل لها إن المماليك بدأوا يتفرقون، فجلست في برجها الأحمر، تُعد العدة لمواجهة أيامها المقبلة، وتضع الخطط للاستيلاء على العرش من جديد، بحماية رجل قوي يعمل بإرشادها ويذعن لمشيئتها.

ومرت أيام هادئة رتيبة، فنما هذا الأمل في نفسهـا حتى حسبت أن الخطر قد توارى الى الأبد، وأن الأمر قد استتبّ لها من جديد.

١٠

نقمة ام علي

يوم اشترطت شجرةُ الدر على عزّ الدين أيبك أن يطلّق زوجته الأولى لتعقد عليه ، لم يخطر في بالها أنها أقدمت على عملٍ من شأنه أن يوردها مورد الهلاك . فقد جلبت على نفسها عداوة امرأةٍ لا تقلُّ عنها حزماً ، وصلابةً ، وقوة إرادة .

ولو اقتصر الأمر على الطلاق ، لكان من المحتمل ان تواجه الزوجةُ الطالق نصيبها بشيء من التساهل والإذعان لمشيئة القدر.. ولكنّها اصيبت في أعمق عواطفها وأرهفها شعوراً ، ألا وهي عاطفة الأمومة : إذ اضطر أيبك إلى إقصاء ولدها القاصر، عليّ ،عن العرش ليرضيَ شجرةَ الدر

التي كانت صاحبة السلطان والصولة .

وأقامت أم عليّ زمناً طويلاً تخفي غيظها وتغذّي حقدها في العزلة والظلام ، ولا يدري بها أحد . حتى إذا اغتيل الملكُ المعز ، أدركت ان ساعتها قد أزفت ، وبرزت تطالب بالانتقام للدم المهدور غدراً وعدواناً .

يومذاك وقفتْ تخاطب المماليك سافرة الوجه ، لامعة العينين ، متوتّرة الاعصاب . وانطلقت الكلماتُ من بين شفتيها كالنار المحرقة ، فأثارت الخواطر ، وألهبت النفوس.

وفي ساحة القلعة ، حيث كانت شجرة الدر تستطيع أن تسمعها لو أنصتت إليها بانتباه ، خاطبت أم عليٍّ المماليك قائلة :

ـ ويحكم ، ماذا تنتظرون ؟ أترجون رحمةً لأبنائكم من تلك التي لم ترحم ولدي علياً ، وهو صبيٌ طاهر القلب، لم يُسىء اليها بشيء ؟ أتتوقّعون رأفةً بعيالكم من تلك التي سلخت زوجي عني لتستأثر به خادماً لأغراضها ، وأداةً لطموحها ... ولما حاول التحرر من قيود الذّل التي

كبّلته بها ، استباحت دمه ، وقتلته غدراً في الحمام ؟! أين أنتم ، يا أبطال البلاد ، ويا حماة الديار ! أتخدعكم مجرمةٌ دامية اليدين ، وأنتم في تخاذلكم سادرون ؟ أتستبدُّ بكمِ امرأة فاسدة الخِلال ، وأنتم لطغيانها خاضعون ؟ أين إباءُ الرجولة فيكم ؟ أين العزة ، أين الكرامة ، أين الشرف ؟

وكان المماليك يسمعون وقد استولت عليهم الدهشة ، واستيقظت في نفوسهم النقمة الراقدة ، ثم ارتفع منهم صوتٌ يقول :

ـ لبّيك ، يا أم علي ! فو اللهِ لن تعود السيوف إلى أغمادها إلا بعد ان تدفع شجرة الدر من دمها ثمن الدم المسفوح غدراً .

وماج الرجال كأن موجةً عارمةً من الغيظ قد عَصَفَتْ بهم ، فامتشقوا السيوف، ورفعوا الرماح، وانطلق صوت أم علي مزغرداً :

ـ يا لثاراتِ الملك المعز !

وارتعدت شجرة الدر رعباً من تبدُّل الأحوال

بمثل تلك السرعة المذهلة ، وحلّ اليأسُ في نفسها محـــلّ الأمل ، وبخاصـّةٍ حينَ رأت حرسها وخدمها يتفرّقون تفادياً للاصطدام بالمماليك ، وسمعت أحد الهاجمين يصيح :

– أضرِموا النار في البرج الاحمر ! دونكم المشاعل ، ايها الرجال !

انقضّ مرجان على المماليك مستبسلاً ، فتلقّفته السيوف ، وأخذتْـه الرماح ...

ورأته شجرة الدر يسقط صريعاً ، فغمرها الأسى ، وكادت تخنقها الدموع. فأطلّـت من ثُغرةٍ عالية في الـبرج وصاحت :

– أغمِـدوا السيوف ، أيها الرجال ! فإني مستسلمة... احقنوا الدماءَ ، وأنا بين أيديكم ، فافعلوا بي ما تشاؤون .

وخرجت إليهم رافعةَ الرأس تحت حجابها الكثيف ، فاحاطوا بها ، واقتادوها إلى السجن . ولم يلقوا السلاح إلا بعد أن أوصدوا دونها أبواب الحديد .

قَبَعَتْ سلطانة الأمس في ظلمة الانفراد تستعرض

ماضيها ، وتحاول معرفة ما يخبّئه لها الغد ، وتتلقى من تقلّبات القدر أمثولةً وعبرة . وكانت تسمع صوتاً يهمس في أذنها ، كأنه خارج من أعماق الأرض ، أو هابط من أعالي السماء : « الدم يستسقي الدم ! » فارتعدت مفاصلها ، وبكت !

انحدرت الدموع على خدّيها هادئةً ، بطيئة ، في صمت مهيب ، فما كفكفتها ، بل طاب لها ان تتألم . وهالها أن تفقد قواها أمام الموت ، فاستجمعت رباطة جاشها مصمّمة على ان تكون مثال الشجاعة والصمود في اليوم العصيب .

أمّا أم علي ، فما اكتفت بما حلّ بعدوّتها من الهوان ، بل عملت على تعذيبها والتنكيل بها .

وكانت الانظار قد اتجهت إلى الناصر علي بن عزالدين أيبك ، فتفاوض المماليكُ بشأنه أياماً ،ثم أجمعوا على تنصيبه ملكاً على عرش أبيه . فاشتدّت شوكة أم عليّ ، واتسع نفوذها، وأصبحت صاحبة الرأي السائد والكلمة المسموعة. وتسنّى لها ان تصبّ غضبها ونقمتها على شجرة الدر ..

لقد أرسلت اليها الغلمان يجلدونها بالسياط صباح مساء، ويكيلون لها الشتائم والاهانات والصفع واللكم بلا حساب ، فما شكت هذه ولا استغاثت ... ولم تستطع أم علي أن تروي غليلها بسماع نحيبها ، أو صيحة واحدة من صيحات الألم ينتزعها منها التعذيب .

وكانت الجماهير قد بدأت تهتف للناصر علي، وتتوسم فيه ملكاً عادلاً يخرج بالبلاد من الأزمة التي تتخبط فيها ، إلا ان أمه أبت إلا ان يبدأ عهده بسفك الدم انتقاماً لأبيه ، فخلت به وقالت له :

– أتدري ، يا ولدي ، كيف مات أبوك ؟

ـ أما اغتالته شجرة الدر ؟

– بلى ! ولكن كيف ! أرسلت اليه الغلمان يضربونه بالهراوات في الحمام حتى لفظ أنفاسه ، وهو البطلُ المغوار الذي دوخ الجيوش في الميادين ... والله ، يا بني ، لو هلك أبوك في المعركة تحت سنابك الخيل، لما آلمني موته ، أما ان يفتك به الغلمان غدراً ، بأمر هذه المجرمة فهذا ما لا يطاق أبداً ...

وكان الناصر عليّ هادىء الطبع ، ميالاً إلى المسالمة والتسامح ، على الرغم من حداثة سنه . ولكنه تأثر بكلام أمه ، وأثارت غضبه الطريقةُ التي اغتيل بها أبوه ، فقال :

ـ لقد نالت الغادرة جزاء غدرها .. ها هي في السجن تنتظر مواجهة ربها . والويل لها من يوم الدّين .

فصفقت أم علي كفّاً بكف وقالت متباكية:

ـ أتترك دم أبيك للقدَر ، يا ولدي ، وأنت تتاهب للجلوس على العرش ؟ وماذا يقول الناس فيك حين تصبح ملكاً وشجرةُ الدر حيةً ترزق ؟ ألا يقولون : هذا الذي قتل أباه نفرٌ من الغلمان ، تنفيذاً لأمر مجرمة حاقدة ؟ أمّا إذا قتلتها فإنك تغسل بدمها عارك ، وعارنا جميعاً ، وعار البلاد ! رحم الله أباك !

إنه ما أغمض يوماً على قذى ، ولا نام على ضَيم . أنت ابنه ووريثه ، ودمه أمانة في عنقك . لهفي عليك ، ولدي، كيف يطيب لك النوم ، وقاتلة أبيك تنعم بالحياة ؟ بل كيف تستطيع أن تنظر إلى وجوه الناس قبل ان تسحق هذه الغادرة سحقاً. إذهب إلى السجن فوراً وأخمد أنفاسها،

وإلا سبقتُـك أنا إلى القيام بهذا الواجب ، وتركتك تعيش نادماً ، تنهش قلبك الحسرة إلى ما شاء الله !

فنهض علي متثاقلاً ، وأطرق مفكراً ، ثم قال :

- إنا لله وإنا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم !

ومضى إلى السجن وهو غير واثق بأن أمه على صواب. ولما وقع نظره على شجرة الدر ، وهي في أسمالها البالية صفراء الوجه ، دامعة العينين ، مقرّحة الجفون ، استلّ سيفه ودنا منها على مهل ، فراحت تحدّق إليه بلا وجل...

كانت محتبيةً على حضيض الزنزانة الرطب ، المكسوّ بالأوساخ ، فما تحرّكت ، ولا طَرَفَ لها جفن .

وتردد عليّ مرتبكاً لا يدري ما يفعـل .. فخاطبته شجرةُ الدر برفقٍ قائلة :

- إضرب ، يا عليّ ! اضرب ولا تخف . فأنا قاتـلة أبيك !

ـ أتفاخرين بالإجرام ، يا أم خليل ؟



شجرة الدر في طريقها إلى السجن

فانتفضت لسماعها هذا الأسم الذي يذكّرها بقدسية الأمومة ، ثم قالت :

ـ لا أفاخر يا علي ، بل أنا نادمة ، ومن واجبك ان تضربني بهذا السيف الذي في يدك ، وإلا فما أنت برجل .

ـ أتقتلين وتحرّضين على القتل !!

فأجابت بصوت ينم عن التوسّل :

ـ لا أحرضك على القتل ، يا علي ، بل أشجّعك على معاقبة قاتلةٍ لم ترعَ لأبيك حرمة .

فخرج من الزنزانة وصاح بأحد رجال الحرس :

ـ إكفني شر هذه المرأة ! فوالله ان لم تقتلها في هذه الساعة ضربت عنقك .

ومشى عليٌّ في باحة السجن الداخلية بخطى بطيئة ، فما كاد يبلغ الباب حتى هرول الحارس يقول له :

ـ ماتت شجرة الدر ، يا مولاي ، قتلها ...

فقاطعه عليٌّ مزمجراً :

ـ كفى ! لا أريد أن أعلم كيف ماتت ، ولا من قتلها ...

وسار متوجهاً إلى القصر لا يلوي على شيء .

١١

عهد جديد

وقعت تلك الأحداث في القـــاهرة ، وركن الدين بيبرس في بغداد. ولما نقلها اليه أحد التجار القادمين من مصر ، كانت جيوش التتر قد اجتاحت العراق بقيـــادة خاقانها هولاغو . يومذاك هلك المستعصم ، وحاول الغزاة استئصال العباسيين عـــن آخرهم . فنجا منهم الإمام أحمد بن الظاهر بأعجوبة ، لاضطراره إلى التغيب عـــن الاجتماع الذي دعا هولاغو اليه جميع الأمراء العباسيين ، زاعماً أنه يريد الاتفاق معهم . لكنهم ما كادوا يجتمعون في فسطاطٍ نصب لهذه الغايـــة بالقرب من باب كلواذي في بغداد ، حتى بادرهم التتر بالسيف ، وقضوا عليهم .

وكان الإمام أحمد سجيناً في برجٍ على مقربة من الفسطاط ، وقد فرض المستعصم حراسة شديدة عليه لكونه من الأمراء المرشّحين للخلافة . فلما علم بالمكيدة التي دبّرها هولاغو للفتك برجال الدولة العباسية ، اغتنم فرصة الفوضى الضاربة أطنابَها ولاذ بالفرار . إنه غادر بغداد بمساعدة ركن الدين بيبرس ، ولجأ إلى إحدى قبائل العرب في بادية العراق ، فأكرمت وِفادته ، وتعهدت بحمايته .

وذهب ركن الدين اليه فقال له :

– لقد خلت بغداد من بني العباس ، أيها الإمام ، فانحصرت الإمامة فيكم . ولا بدّ من الانتظار حتى يأذَن الله بإعلان دعوتكم في مكان لم تصل اليه أيدي التتر .

وتردد قليلاً ، ثم استطرد قائلاً :

– وربما كانت القاهرةُ أجدرَ الحواضر بأن تصبح العاصمة الثانية للخلافة العباسية .

فأُعجب الإمام بولاء رُكن الدين ، وما يتحلّى به من بُعد النظر وأصالة الرأي ، فقال له :

ـ إذا كانت إرادة المولى ، سبحانه وتعالى ، أن يتحقق ما تقول ، فالسلطنة في مصر لن ينالها سواك .

فأجاب ركن الدين :

ـ حسبي أن أخدم مولاي الإمام بما أوتيتُ من قوة ، ولتكن بعدئذٍ مشيئة الله .

ولما اطمأنّ ركن الدين إلى سلامة الإمام أحمد ، سافر إلى مصر . وكان عليّ بن عز الدين قد قبض على زمام الأمور ، واتخذ اسم « نور الدين » ، فما لبث أن استرسل في الغرور ، وهو فتى عديم الخبرة . وبدأ الأمراءُ المماليك يتذمرون من طيشه واستخفافه بهم ، فعَمِل ركن الدين بيبرس على إثارة استيائهم حتى أجمعوا على خلع نور الدين ، ومبايعة سيف الدولة قطز ، لكونه من سلالة ملوك خراسان .

وكان بيبرس يعلم أن قطز أعجز من أن يضبط شؤون الدولة ، ويفرضَ سيطرته على المماليك . إلا أنه رضي بمبايعته ريثما تُتاح له الفرصة المؤاتية لتنفيذ الخطة البارعة

التي وضعها ، وهي تتلخّص في نقْل الخلافة العباسية إلى مصر ، والجلوس على عرش السلطنة .

وفي السنة التالية زحف هولاغو على سورية ، وبعث يهدّد وادي النيل ، فاستدعى قطز الأمراءَ وقال لهم :

ـ العدوّ التتري على الأبواب ، يهدد باجتياح ديارنا ، وانتهاك حُرمتنا ، وتدنيس مقدساتنا ، وقد دعوتكم للتشاور في هذا الأمر .

فوقف ركن الدين بيبرس وقال :

ـ ما هدد هولاغو مرةً إلا غزا ، واجتاح ، ودمّر ، وملأ البلاد المغلوبة على أمرها عسْفاً وتنكيلاً . فهل يُواجَه خطرٌ كهذا بغير السيف ؟

فهتف الأمراء بصوت واحد :

ـ القتال ! لا بد من القتال !

وقال ركن الدين :

ـ أيها الأمراء ، لا يجوز لنا أن نكتفيَ بالدفاع عن

وادي النّيل ، بل يجب علينا أن نبـــادر التتر بالهجوم . فلْنذهبْ اليهم قبل أن يأتوا الينا . فإخوانُنا في فلسطين والشام ينتظرون تحرّكنا لينتقضوا على الغزاة البرابرة ، وينضمّوا إلى صفوفنا، ويقاتلوا إلى جانبنا. إن في زحفنا الى سورية تعزيزاً لقوّاتنا ، فهـــل لأحد منكم رأي في هذا الأمر ؟

فأجابوا بلا تردد :

ـ سِرْ بنا الى القتال ، يا ركن الدين ، فلا خير في قوم يُهاجَمون في عُقْر دارهم .

وما هي إلا أيام حتى كان الجيش على أُهبة الاستعداد للزحف . فقرعت الطبول ، وارتفعت أصوات الأبواق ، ومشى الجند شرقاً تحت خفق الرايات . وكان ركن الدين في المقدّمة ، ينظر الى المستقبل متفائلاً ، وفي نفسه يقين بأنه بالغٌ مآربه لا محالة .

وكان القدَر في عونه ، فقد غادر هولاغـــو الديار السورية وعاد الى بلاده لموت أبيـــه . فضعُف جيشه ،

وانتشرت فيه الفوضى، وتفرقت جحافله شِيعاً وأحزاباً، فانصرفت الى السَّلب والنهب والاقتتال على الغنائم والأسلاب غير حاسبة لِغَدِها حساباً .

ولما أطلّ جيش مصر على ربوع فلسطين تنادى التتر، وجمعوا صفوفهم لصدّ القوة الزاحفة عليهم من الغرب . إلاأن رُكن الدين لم يدعْ لهم متسعاً من الوقت لِحَشْد فرقهم وتنظيم أمورهم، بل بادرهم بالسيف. ولقد قاوموا مقاومة ضارية ، ثم هبَّت عليهم رياح الهزيمة فاندحروا ، وراح فرسان المماليك يطاردون فلولهم حتى زال خطرهم عن فلسطين والديار السورية .

وأبلى ركن الدين في المعركة بلاءً حسناً ، فكان مثال القائد الحكيم المحنَّك، والمقاتل المقدام الذي لا يهاب الموت، فاكتسب قلوبَ أمراء الجيش ، حتى أنهم تناسَوا قائدهم الأعلى سيفَ الدين قطز ، وأخذوا يهتفون لركن الدين .

تضايق قطز من ذلك الهتاف ، واعتبره تحدّياً له ، وحطّاً من قَدْره. فوبّخ الامراء توبيخاً قاسياً وأغلظ لهم



ركن الدين يهاجم قطز

في الكلام . فاضمروا له الشر ، على الأخص لأنه تخاذل في القتال ، ولم يكن في مستوى المرتبة العالية التي رفعوه إليها. لقد كان توبيخه في غير أوانه ، واعتبره الأمراء نوعاً من الصلَف والغرور .

ورأى بيبرس الفرصة سانحة له فأوغر صدورَ المماليك على قطز . وكان هذا يؤثر العزلة والانفراد ، ولا يختلط بقادة الجند . . لاعتقاده أنه بابتعاده عنهم يحافظ على حرمة التاج والصولجان . فأفاد بيبرسُ من هذا التصرف البعيد عن الحكمة، وما لبث أن جمع الأُمراء في ليلة قمراء، وجلس يحدثهم قائلاً :

ـ لقد أثبت سيف الدين (قطز) أنه غيرُ جدير بالعرش، فهو خامل الهمّة، ضعيف الإرادة، يحسب الكبرياء شَمَماً ، والغطرسة إباء ... فهل يجوز أن نظل خاضعين له ، راضين بسلطانه علينا ؟

فاجاب أحدهم :

ـ أنت لها، يا ركنَ الدين، فافعل ما تشاء ونحن معك.

قال :

- غداً أقدّم لكم الحلّ الحاسم ، فتفرّقوا الآن ، وليكنْ كل منكم على حذَر .

وفي اليوم التالي ، ما كاد الجند يتحرك مستأنفاً سيره الى مصر ، حتى دنا ركن الدين من سيف الدين ، وجعل يعاتبه على ما وجّه الى المماليك من توبيخ خالٍ من اللّياقة . فاستشاط قطز غيظاً وصاح :

- اغرُب من وجهي ، يا بيبرس ! وقريباً ، في القاهرة ، ساعرّفك قيمة نفسك .

فأجاب ركن الدين ساخراً :

- أتهدّدني ، أيها الملك ؟

قال قطز :

- لا أهدّدك وحسب ، بل أنزعُ عنك لقب الإمارة ، وأجرّدك من قيادة الجيش ، وأُحيلك الى المحاكمة .

فردّ ركن الدين جواده قليلاً الى وراء وقد أبرقت

عيناه ، ولمع الحزم في ملامحه ، ثم جرّد سيفه وقال بنبرة لا تترك مجالاً للجدل :

ـ أيها الملك ، دافعْ عن نفسك !

فادرك قطز أنه تورّط في مازق لا قِبل له به ... إلا أنّ كرامته أبت عليه إلا أن يرد على التحدي بمثله. فجرّد سيفه وأغار على ركن الدين ...

استغرقت المعركة دقائق معدودة ، وخرّ سيف الدين صريعاً في الجولة الأولى ، فارتفعت أصوات الأمراء تهتف :

ـ عاش السلطان ركن الدين بيبرس .

ودخل البندقداري القاهرة سلطاناً سنة ٦٥٨ هجرية، فاتخذ اسم الملك الظاهر .

وما أن استتبّ له الأمر حتى بعث يستقدم الإمام أحمد ، فجاءه في السنة التالية ، وبويع خليفةً باسم المستنصر بالله.وبه بدأت الخلافةُ العباسية في مصر ،فتمّت الخطة التي وضعها بيبرس في بغداد .

فهرست



النـاجحون

مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من ابطال العالم في الشرق والغرب ، في الحروب والسلم ، رجالا ونساء ، قديماً وحديثاً .

١ – زنوبيا
٢ – خالد بن الوليد
٣ – نابوليون بونابرت
٤ – بتهوفن
٥ – طارق بن زياد
٦ – هنيبعل
٧ – كولومبس
٨ – عبد الرحمن الداخل
٩ – صلاح الدين الايوبي
١٠ – مدام كوري
١١ – اديسون
١٢ – غاندي
١٣ – شكسبير
١٤ – المتنبي
١٥ – الاسكندر
١٦ – باستور
١٧ – ابن بطوطة
١٨ – هيلين كيلر
١٩ – شجرة الدر
٢٠ – ليوناردو دي فنشي

قالوا ...
عن سلسلة « الناجحون »

« ابتعت المجموعة القيمة التي أصدرتموها تحت عنوان « الناجحون » وحملتها إلى بيتي هدية إلى عائلتي الصغيرة، إلى بناتي، إلى زوجتي، وهدية لنفسي.

لقد قلتم انكم تقدمونها إلى الفتيان والفتيات، ولكني أؤكد لكم انها بطباعتها الأنيقة وأسلوبها الممتع وتكثيف المعلومات بشكل ناجح أخاذ تنفع الكل وتصل بينهم وبين معارف سبق أن قرأوها فنسوها، أو لم يسبق لهم أن ألموا بها ...

ولقد التهمت هذه الكتب ووجدت فيها متعة وفائدة، وإني مؤمن بأن هذا الباب الذي فتحتموه إلى رياض المعرفة والثقافة والشجاعة والعمل والمثابرة سيكون طريقاً للنجاح، ودنيا لجيلنا وأجيال الشباب أيضاً .. ولعل الشباب بأمس الحاجة إلى مثل هذه المفاتيح في عصرنا، عصر القلق والضياع والانتماء والمتاهات الكبرى ...

« الناجحون » سلسلة تضيف صفحة مشرقة إلى سجل « دار العلم للملايين ». واني كأستاذ جامعي، وأب، ومرب، أهنئكم وأهنىء الذين أسهموا في هذه السلسلة ... ».

الدكتور محمود محمد الحبيب

الاستاذ المساعد في الاقتصاد

البصرة – العراق